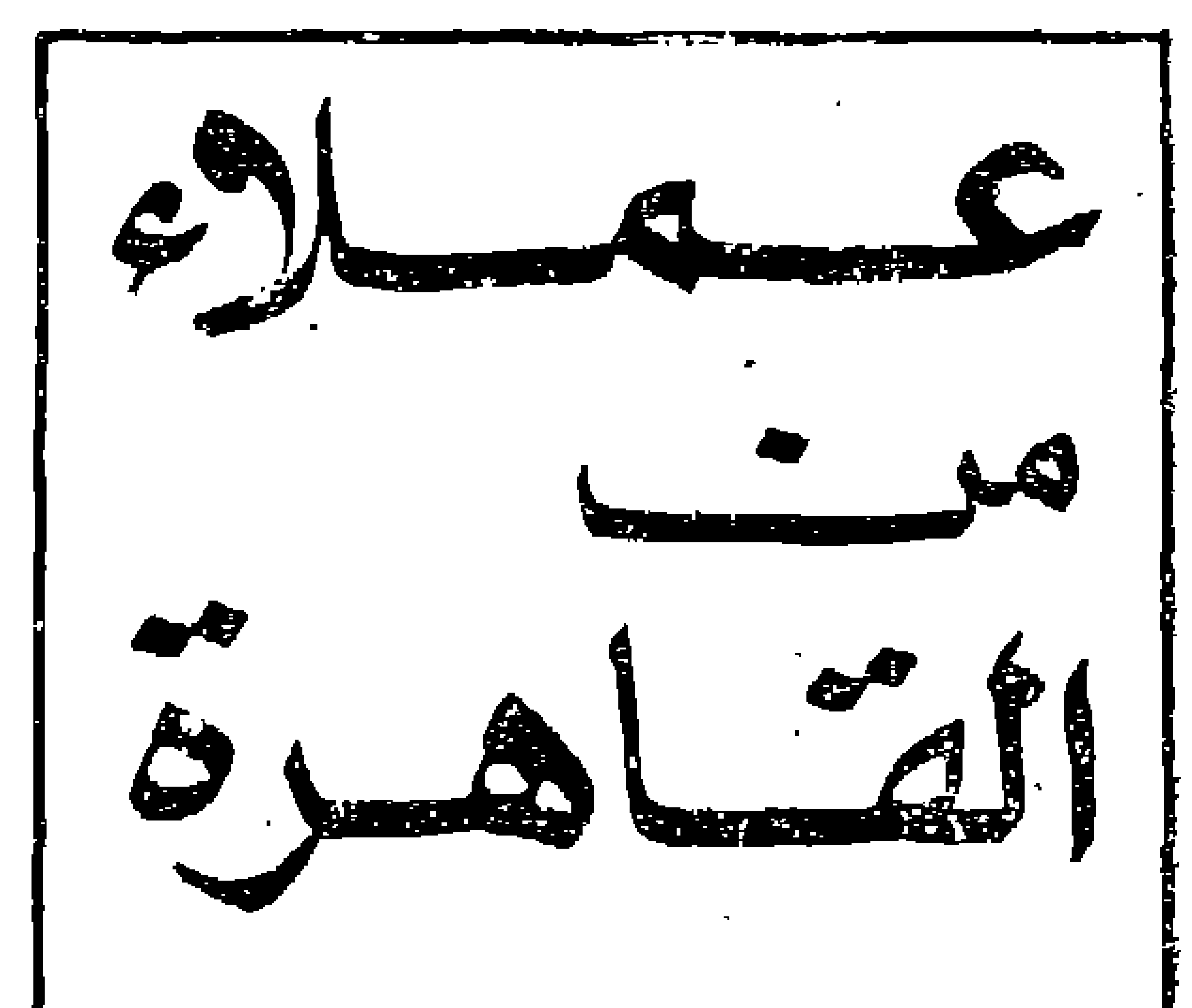
ماهر عبد الحميد



عملاء من القاهرة





ماهر عبد الحميد

مقدمة

لست أعتقد أن ثمة أمرا قد حظى بموافقة المخابرات المصرية والإسرائيلية ، مثل ذلك المتعلق بكتمان أنباء هؤلاء العملاء ، فطيلة العشرين عاما الماضية ، كانوا يتوافدون من القاهرة إلى إسرائيل ، مغامرين ومرتزقة ، أبطالا حقيقيين وهواة مخاطرة ، دون أن يفكر أحد فى نشر أى شذرة من المعلومات عن شخصياتهم الاسطورية . وفيما بعد ، عندما سقطوا فى قبضة الإسرائيليين ، قضوا مدة العقوبة ثم خرجوا إلى ظلام التجاهل المطبق ، والإنكار المتعمد ، من كل من الجانبين .

كانت إسرائيل — فى رأى — محقة إلى أبعد المدى فى صمتها الذى واجهت به عمليـــات اعدائها هؤلاء ، وكان من المنطق ، أن تسدل المخابرات الإسرائيلية ستارا كثيفا من السرية حول شخصياتهم ، حتى لا تتزعزع الثقة فى حائط الأمن الإسرائيلى الذائع الشهرة ، والمصنوع، ذلك الحائط الوهمى الذى اكتسب فعاليته من البرامج الدعائيه المتقنة ، دون أن يكون له أى وجود فعلى على الطبيعة .

أما المخابرات المصرية فكان لديهما منطقها الخاص أيضا ، والذى يتلخص فى أن البيانات المطولة ، وحتى تلك التى تتخذ طابعا رسميا ، ليست ضرورية فى جميع الحالات ، كما أنها لا تعود بفائدة يعتد بها أبدا ، ورغم أن التجارب قد أثبتت صواب هذا المنطق ، إلا أن الحوادث التى تتابعت مؤخرا ، جعلت من غير المستساغ أن يبقى هذا التكتم إلى ما لانهاية .

فحتى أولئك الذين درجوا على النفور من النقاش العام ، فى مسائل يعتبرونها من أدق شئون مهنتهم ، لم يتشبثوا بمبادئهم فى مواجهة تتابع الحوادث الرهيب . فقد حدثت حرب تعتبر فريدة بين كل الحروب ، وحملت هذه الحرب لحظة بدايتها دليلا لا يقبل الجدل ، على أن كل ما سبقها حتى الثانية الأخيرة ، كان سرا مغلقا ومركبا من عدد خيالى من الاسرار ، وأصبح من الواجب ، كشف اللثام عن الرجال الذين اضطلعوا بمهامها فى صمت وتفان عجيبين ، إلى أن تحقق لهم النصر فى حربهم السرية ثم فى تلك الحرب العظيمة ، وأعنى بها حرب أكتوبر .

عشرون عاما والإسرائيليون يختالون متباهين بقوة أجهزة مخابراتهم « ونوعية » ضباطها ، وفى بعض الاحيان ، كانت تصريحات زعمائهم السياسيين والعسكريين تؤكد ، مع قدر مناسب من التواضع المصطنع ، أن أحدا لا يجسر على التغلغل داخل المجتمع الإسرائيلى ، ووراء حائط الأمن الخرافى ، أما المواطن الإسرائيلى فانه لا يقبل مهما كانت الظروف أن يتعاون مع أجهزة المخابرات المعادية مهما كانت دوافعه .

وفى القاهرة ، كان الصمت الأخرس ، هو الرد الوحيد والمسموح به .

وعندما كان ضباط المخابرات الشبان ، الذى أتاح لهم عملهم أن يطلعوا على جانب من خفايا الصراع السرى ، عندما كانوا يتبادلون الأحاديث المسلية فى أوقات الراحة ، كانت ترتفع نبرة من الاحتجاج المهذب على صمتنا الرسمى ، وعندئذ ، كان الكبار يهزون رؤوسهم الوقورة، وقد يبتسمون ، ثم ترتسم فى عيونهم نظرة عميقة باردة ، أشبه ما تكون بنظرة الثعالب الطاعنة فى السن ، وهى ترقب عدوها ، الذى لا يعدو كونه فريسة طائشة تخاف وراءها أكبر قدر من الضجة .

وكان من المستحيل على المواطن العربى العادى ، فى خضم تيار الدعاية الإسرائيلية الكثيفة ، أن يتقصى الحقائق فى العالم السرى ، وإن كانت بعض الوقائع التى ظهرت للأعين ، قد ساعدت إلى حد ما على المقاومة المقرونة بالتشكك ، فمثلا ، لم يكن من اللائق أن توصف المخابرات الإسرائيلية بالنشاط . والكفاءة . وأحيانا بالتفوق بينما هى عاجزة، الى درجة لا يصدقها العقل ، عن التعرف على صفقة الأسلحة المصرية التشيكية وعن التنبؤ بقرار تأميم السويس ، وعن اكتشاف القرار المصرى بالتدخل فى اليمن . وفى مجال المخابرات الوقائية ، كان العجز أكثر وضوحا ، ويكفى أن نشير إلى أن أرقام وتفاصيل صفقة الاسلحة الفرنسية الإسرائيلية ، قد أذيعت فى القاهرة قبل أن تشحن أول قطعة سلاح من ميناء مارسيليا ، وبلغ من ثقة المخابرات المصرية فى معلومات عملائها أنها ضمنت التقرير الذى قدمته إلى الرئيس جمال عبد الناصر فى هذا الشأن

بيانا بالملاحق التى أرفقت باتفاق الصفقة الأصلى . وفى اليوم التالى ، أذاع الرئيس جمال عبد الناصر هذه المعلومات فى خطاب علنى .

كان ذلك كله قبل حرب أكتوبر .

وإذا كانت الحقيقة قد أطلت على العالم ظهر أول يوم من حرب أكتوبر ، تلك الحقيقة السافرة والمصاحبة لأكبر ضجة يستطيع البشر اصطناعها : هدير المدافع ، وأزيز الطائرات المنقضة ، والتراجع الذى لا يمكن لأى خطة إعلامية مهما بلغ ذكاؤها أن تخفيه ، لأول مرة فى تاريخ إسرائيل منذ انشائها ، إذا كانت هذه الحقيقة قد اتضحت بجلاء فان كل دلالاتها قد بقيت مجرد استنتاج منطقى فى عقل الرأى العام ؛ لأن المصريين رفضوا أن يكشفوا عن أنشطة مخابراتهم ، ودورها المؤثر فى الحرب ، وفى مواجهة التيار المتدفق من الصحفيين ، وكتاب ومؤلفى القصة والروايات السينمائية ، الذين يتدافعون عادة فى أعقاب الأحداث المفاجئة ، يطلبون أجوبة على التساؤلات الملحة . أو يحاولون الحصول على إذن باذاعة ماقد يلتقطونه من معلومات ، فى مواجهة هؤلاء ، اختفت نظرة الترقب العميقة الباردة من أعين الثعالب الكبيرة ، وحلت مكانها نظرة أخرى أكثر برودا ، وإن كانت أقل قسوة ، أشبه ماتكون بالنظرة التى ترتسم فى عينى رجل الدين ، إذا طلبت منه إذنا بممارسة الخطيئة ولو لمرة واحدة . .

كان النشر – وسوف يظل – خطيئة لا يمكن أن تشملها المغفرة فى عالم المخابرات ، فى رأى الذين تعودوا الكتمان ، واتخذوا منه قاعدة لا ترقى

إلى مستواها أية قاعدة آمرة فى الوجود ، يصبح الافصاح عن أى سر مهما بدا قليل الخطر ، جرما يهدر بما يؤثر السلامة ، وعلى الأخص السلامة الشخصية ، أن يمتنع عن مجرد التفكير فى ارتكابه لأى سبب.

ولكن عملاء القاهرة استحقوا أن تتحطم من أجل الاشادة بجهودهم الشامخة كل القواعد ، ولم يعد فى مقدور أى انسان ان يقف متصلبا فى وجه محاولة تعريف الرأى العام بأشخاصهم ، بشرط واحد ، هو اغفال التفاصيل البالغة الحساسية ، التى قد تفيد العدو بشكل او بآخر ، وأعتقد ، أن امنيتى الوحيدة الآن ، هى أن أكون قد وفقت فى الالتزام بهذا الشرط ، لأننى تحملت المسؤولية وارتضيتها وحدى .

ماهر عبدالحميد

الشرق الأوسط ١٩٧٥

١

فلنعقد صفقة

موردخاي كيدار

كانت بداية القصة فى يوم شديد الحرارة من أيام صيف سنة ١٩٥٤ ، ولم يكن هذا الصيف حارا كما هى عادة الطقس فى القاهرة فحسب ، ولكنه كان ملتهبا أيضاً ، ففى اليوم الثانى من شهر يوليو انفجرت قنبلة حارقة فى محطة الرمل فى مدينة الإسكندرية ، ثم انفجرت قنبلة أخرى فى مكتب البريد بنفس المدينة ، وفى الرابع عشر من يوليو انفجرت قنابل أخرى فى مكتب الاستعلامات الأمريكى فى القاهرة ، وحدثت انفجارات مماثلة فى القنصليتين الأمريكيتين فى القاهرة والاسكندرية ، وأخيرا فى الثالث والعشرين من يوليو وضعت عبوات متفجرة فى دارين للسينما بالاسكندرية ، ودارين فى القاهرة بالاضافة إلى مكتب الأمانات فى محطة السكك الحديدية الرئيسية فى العاصمة .

وكان دوى الانفجارات يمثل رسالة بالغة الخطورة إلى النظام المصرى الجديد، فقد اختار المهاجمون موعدا يعرف العالم كله أنه ذكرى

قيام الثورة ، وكان على القيادة المصرية أن تحتفل بهذه المناسبة تحت وطأة الشظايا التي تتناثر في كل مكان ، أو أن تكتشف بسرعة، القائمين بتدبير هذه الانفجارات ، وكان الفشل يعني مدلولا واحدا لا يحتمل الخطأ هو أن النظام الجديد عاجز عن صيانة أمنه الداخلي . ورغم أن المشاكل كانت وقتئذ متوافرة ، إلا أن هذه المشكلة كانت أخطرها جميعا وبلا أي استثناء .

ومن بين أسلحة الدمار هذه ، كانت قنبلة وحيدة هي التي حازت شهرة عريضة مابعدها شهرة ، إذ انفجرت قبل الموعد المحدد لها ، أمام باب دار سينما « ريــــو » بالاسكندرية ، ولأن الشاب الذي انفجرت في حوزته كان يهوديا ، يدعى فيليب ناثان ، ولأن المسألة كانت قد اتخذت أهمية خاصة ، اتخذ التحقيق مع فيليب ناثان طريقاً غير مألوف ، إذ أحيلت المسألة برمتها إلى المخابرات .

وكان أول اجراء هو مهاجمة مسكن اليهودي المذعور ، وهناك عثر المخبرون السريون على عدد من الصور الثمينة لبعض أصدقائه ، ورأى هو أن الحكمة تقتضي أن يكتب قائمة بأسمائهم ، وبسرعة محمومة ألقى القبض على أحد عشر شخصاً ، وضبطت عشرات من الوثائق والخرائط ، وآلة طباعة ، وعدة أجهزة للارسال والاستقبال ، واقتيد المتهمون إلى غرف التحقيق ، وأخذ الضباط في استجوابهم على عجل ، وأدت اعترافاتهم إلى اكتشاف شبكة يهــــودية للتخريب والتجسس ، توجه من إسرائيل ، وتضم ضابطا يدعى « ماكس بنيث » .

إلى هنا والقصة معروفة سبق نشرها على الدنيا بأسرها .

ولكن الذى لم يعرفه أحد ، خارج أسوار المخابرات المصرية ، حتى هذه اللحظة ، أن المتهمين لم يعترفوا جميعا ، فقد ظل أحدهم مطبق الفم مصرا على الإنكار ، أنكر بشدة أنه مضطلع بدور — أى دور — فى الشبكة ، ونفى نفيا قاطعا جميع التفاصيل المتعلقة بمهمته ، والتى أدلى بها زملاؤه ، وزعم أنه لم يكن سوى رسول أبله لاوزن له ، وأثبت بالفعل أنه كان قد سافر إلى باريس ، حيث التقى فى السادس والعشرين من مايو بشخص يدعى « افى » الذى طلب منه أن يسلم رسالة إلى أحد أفراد الشبكة عندما يعود إلى القاهرة ، وبعد ذلك أقفل فمه ولاذ بالصمت .

كان شابا وديعا ذا مظهر برىء وشعر أشقر وعينين زرقاوين ، يرتدى بنطلونا أسود وقميصا مهدلا يتدلى جزء منه فوق مؤخرته ويحمل وثيقة سفر ألمانية باسم « بول فرانك » وكانت مهنته الموضحة فى هذه الوثيقة ، تبين أنه يعمل ممثـــلا لشركة ألمانية للأدوات الكهربائية ، وقد نجح فى اتخاذ طابع الإنسان الطيب ، والحسن النية ، الذى أوقعه الحظ العاثر فى براثن مجموعة من الأشرار ، حملوه رسالة خطيرة دون أن يعرف محتوياتها ، ورغم أن ضباط الاستجواب صارحوه بتشككهم فى هذه القصة ، إلا أنه واصل العزف على هذه النغمة دون كلل .

كانت أقواله منطقية تتفق مع مظهره وشخصيته ، ولم تكن أقواله

زملائه فى مجموعها كافية لإدانته ، فلم يثبت أن أيا منهم قد التقى به باستثناء ذلك الذى تلقى رسالته ، كذلك لم يتضح أن أحدا قد شك فى أنه ألمانى حقيقى يشرف على تسويق المعدات الكهربائية ، ولم تكن مراحل الاستجواب قد تقدمت بعد، ولم يجد المحققون ضرورة لمواجهته بالمتهمين الآخرين ، وأهم من ذلك كله ، لم تضبط فى حوزته أية أوراق أو أجهزة مثيرة للريبة مطلقا .

ولكن الذى حدث فى ذلك اليوم الشديد الحرارة كان مثيرا ، فقد استدعى « بول » إلى غرفة التحقيق للمرة المائة منذ أن قبض عليه . وكان هو وديعا هادئا يرتب فى عقله الأقوال التى تعود اجترارها أمام ضباط التحقيق ، وعندما أدخل إلى الغرفة لم يلحظ فى البداية أن الجالس إلى المكتب كان رجلا يتمتع بأهمية خاصة ، بينما وقف اثنان من الحراس الاشداء عند الباب . كان المحقق هذه المرة هو أعلى مسئول فى الجهاز السرى المصرى وقتئذ ، الرجل الذى أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء ، ونائبا لرئيس الجمهورية : زكريا محي الدين .

ويبدو أن « بول » تعرف على شخصيته ، فقد رمقه بنظرة خاطفة واكتست ملامحه بالهلع فجأة ، وبدلا من أن يمـــد ساقيه أمامه كما تعود أن يفعل ثنى ركبتيه وشد نفسه على طرف مقعده ، ولم يردد قصته المحبوكة مطلقا بل فتح فمه وأطبقه بسرعة ، ورفع عينيه إلى السقف ثم خفضهما إلى السجادة الرمادية التى تغطى أرضية

الغرفة ، وبعـد أن تنفس بقوة غمغم بهذه الكلمات .

ـ حسنا ، إنى ضابط فى المخابرات الإسرائيلية .

لم تختلج عضلة واحدة فى وجه المحقق وظل ساكنا كأنه يستقبل كل يوم عشرات من ضباط المخابرات الإسرائيليين ، واستمر فى تسليط عينيه اللامعتين على محدثه ، هاتين العينين اللتين طالما بثتا الرعب فى قـلوب الجواسيس ، واستمر « بول » فى الإدلاء باعترافاته ، وعندما كان يتوقف ليلتقط أنفاسه ، كان المحقق الهادىء يرمقه بنظرة مستزيدة فاحصة فيسارع إلى مواصـلة الافضاء بما لديه ، وشرح مهمتـه باسهاب ، والأوامر التى تلقاها ، والخطوات التى اتخذها منذ جاء إلى مصر ، ودور كل عضو من أعضاء شبكته .

ـ فلنعقد صفقة .

هـكذا همس المحقق الصعب المراس من خلال شفتيه الرقيقتين ، وأومأ بول موافقا . كانت الصفقة طريفة بقدر ما كانت سخية ، ففى مقابل إنقاذ عنقه الواهن من حبل المشنقة ، ارتضى « بول » أن يصبح عميلا لمصر ، وكما هى العادة عند عقد هذه الصفقات ، لم يحصل أى من الطرفين على توقيع الطرف الآخر ، كذلك لم تكن هناك أية تعهدات مكتوبة أو ضمانات ولكن كلا من الرجلين نفذ بنود الاتفاق باخلاص وأمانة .

ففى اليوم التالى مباشرة أفرجت المخابرات المصرية عن متهم يدعى « افى فايز » حيث ثبت من التحقيق المبدئى أنه لم يرتكب ما يبرر تقديمه للمحاكمة ، وكان افى هذا شخصا تافها غريب الأطوار اعتقل لصداقته مع متهم ضالع فى الجريمة يدعى فيكتور ليفى ، ورغم أن افى كان عميلا سريا إسرائيليا إلا أن المصريين أغمضوا أعينهم عن الحقيقة الأخيرة وهم يطلقون سراحه .

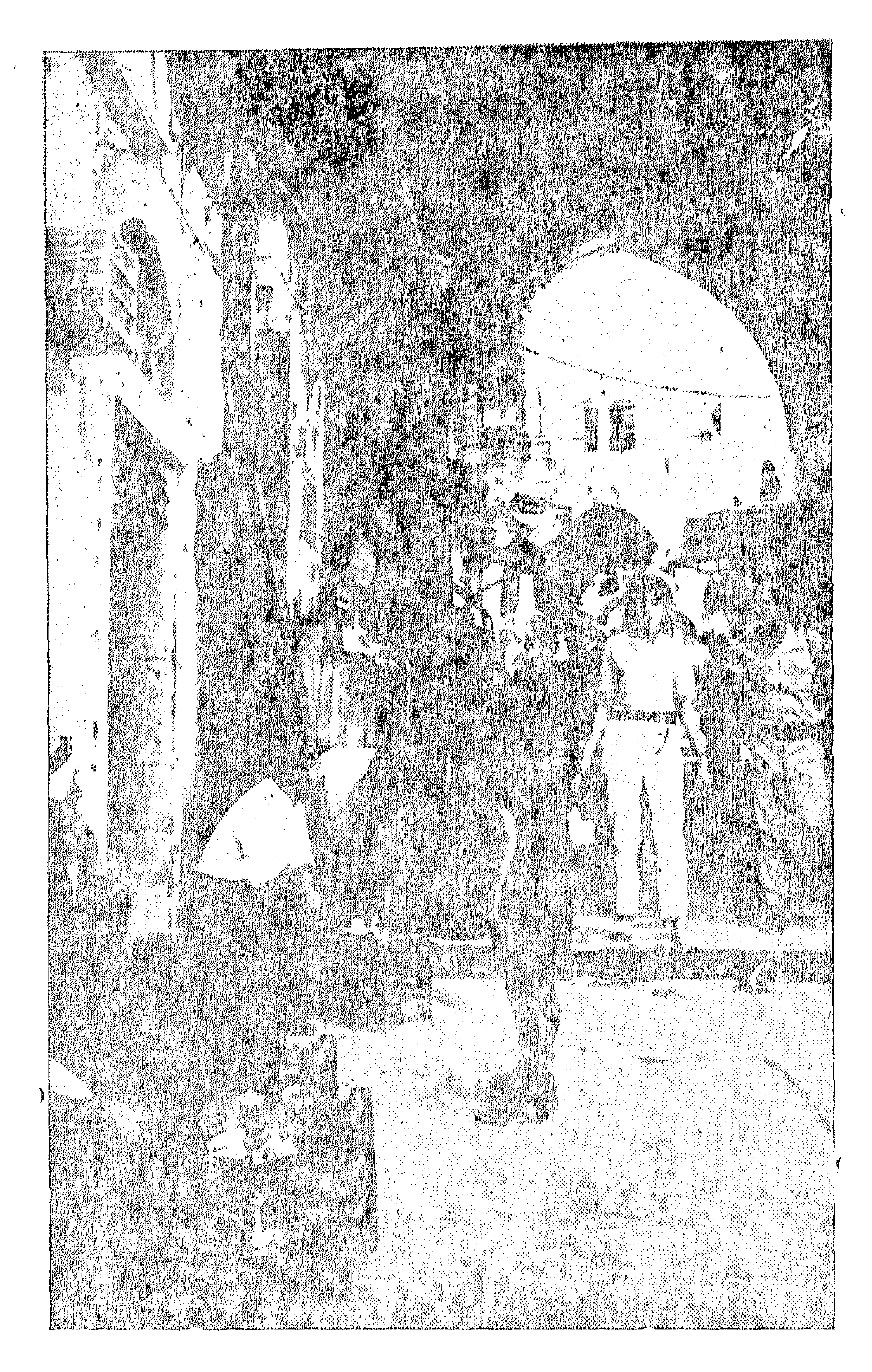
ويبــــدو أن « افى فايز » الشقى كان يرتعد فرقا عندما غادر مصر مشيعا باللعنات ، كما أن الفترة التى قضاها رهن التحقيق قد كشفت له عن المصير المحزن الذى يتوجب عليه أن يتوقعه إذا سقط مرة أخرى ، فبمجرد أن وصل إلى أوربا ، سارع بكتابة رسالة مطولة إلى رؤسائه السابقين فى تل أبيب ينبئهم فيها بأنه اكتفى بهذا القدر من العمل فى الظلام ، وقرر احتراف التجارة ، ولا شك أن هذا أسلوب مبتكر لاعتزال العمل .

كانت حيلة المصريين ذكية بدرجة ما ، فقد لفتوا أنظار عدوهم بهذا الاجراء بعيدا عن الهدف الحقيقى ، وابتلع الاسرائيليون الطعم دون أدنى قدر من التروى أو التبصر ، فأسرعوا إلى نصب شباكهم حول « افى » واستدرجوه لكى يعود إلى إسرائيل وهناك لم يتمكن من تقديم تفسير مقنع للتناقض الجلى الذى بدا فى قصته ، وسأله ضباط الاستجواب :

— هل اعترفت للمصريين بأنك عميل سرى ؟ !



السهم يشير إلى موردخاى كيدار فى أحد مطاعم تل ابيب



موردخاي كيلار في القدس



منزل موردخاى كيدار فى اسرائيل

وأجاب هو بصدق وغباء فى وقت واحد : . . . نعم نعم

ولم يكن من المعقول أن يعترف للمصريين بحقيقة عمله ثم ينال حريته بهذه البساطة ، لذلك قدم إلى المحاكمة .

وأطلقت المخابرات الإسرائيلية وصف « الرجل الثالث » على « داقنى » الذى أصيب بالذهول ، وتركزت أصابع الاتهام فى اتجاهه تحت زعم أنه وشى بالشبكة كلها ، وواجهه القضاة بالمعلومات التى اعترف بها ، والتى تتلخص فى أن « فيكتور ليفى » كان على موعد معه عندما داهمته الشرطة المصرية وألقت القبض عليه ، كذلك كانت ثمة نقطة مثيرة أخرى ، فقد ثبت أن المخابرات المصرية قد زودته ببعض النقود وهو يغادر مصر . وفى النهاية أصيب المتهم البرىء بلوثة قضت تماما على مستقبله .

فى الحادى عشر من ديسمبر بدأت فى القاهرة محاكمة الشبكة أمام محكمة عسكرية ، وفى الثانى والعشرين من نفس الشهر أصدر المصريون بيانا مقتضبا بأن ماكس بنيت ، الضابط فى المخابرات الإسرائيلية ، قد انتحر فى السجن ، وفى السابع والعشرين من يناير سنة ١٩٥٥ اصطف المتهمون فى قفص الاتهام ليستمعوا إلى الأحكام ، الإعدام شنقا لاثنين منهم ، والسجن لمدد طويلة لستة آخرين ، واطلق سراح اثنين « لعدم كفاية الإدانة » . .

وبعد أربعة أيام نفذ حكم الإعدام فى كل من الدكتور موسى مرزوق وشموئيل عازر فى سجن الاستئناف بميدان باب الخلق، أما « بول فرانك »

فكانت تنتظره مفاجأة رهيبة ، إذ هاجمه ثلاثة من عملاء المخابرات في الزنزانة التي كان يقضي بها الأيام السابقة على إطلاق سراحه ، وهناك نزعوا ثيابه وألهبوا جلده بالسياط ، واحدثوا بعض الحروق في صدره وذراعيه ، وكان هو مستسلما يتأوه دون أن يقاوم ، وعندما شكا في الصباح إلى أحد كبار الضباط مما حدث له ، ابتسم الضابط ثم هتف : اسمع يابني ، إذا أردت أن تدعي أنك عبرت النهر ، فلابد أن تبتل ثيابك .

وكان على « بول » أن يرحل عن مصر ليلحق مرة أخرى بركب مخابرات داوود ..

وبصرف النظر عن الحيل التي اتبعها المصريون في هذه الجولة ، لا يملك المرء إلا أن يبدي عجبه ، ازاء سماح الإسرائيليين « لبول » بالاستمرار في خدمة مخابراتهم . فقد سقط هذا الضابط في قبضة المصريين ، وبقي في قبضتهم مدة تزيد على الستة أشهر ، وكان من الواجب أن ينتقل إلى أي عمل آخر أو يحال إلى التقاعد ، حتى لو ثبت ثبوتا مطلقا أنه لم يكن خائنا .

قضى « بول فرانك » فترة قصيرة في تل أبيب ، بقصد الراحة والاستجمام بعد عناء الشهور التي « قاسى » خلالها وهو في السجون المصرية ، وفي السادس والعشرين من مايو ١٩٥٥ صدرت اليه الأوامر بالتوجه إلى القدس . وهناك استقبله « ايزر هاريل » مدير المخابرات الإسرائيلية في ذلك الوقت ، وقد حضر المقابلة التي دامت اربعين دقيقة

الكولونيل بنيامين جيلي مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية ، وبعبارات مقتضبة ، وبلهجة يشوبها الاحساس بالمرارة ، قدم « بول » تقريرا عن مهمته الفاشلة فى القاهرة وعن المتاعب التى تعرض لها اثناء التحقيق ، والبراعة التى واجه بها الموقف إلى أن تمكن من النجاة .

كان « بول فرانك » موظف شركة الأدوات الكهربائية قد انتهى إلى الأبد ، فقد عاد الضابط الشاب إلى شخصيته الحقيقية أمام رئيسه ، ولم يكن أحد فى هذا الكون يعرف أن « بول فرانك » ليس سوى « موردخاى كيدار » الضابط البحرى وأحد ابطال حرب ١٩٤٨ وعميل المخابرات الإسرائيلية المغامر ، باستثناء رجلين اثنين ، ايزر هاريل مدير المخابرات الإسرائيلية فى القدس ، وزكريا محى الدين مدير أجهزة المخابرات المصرية فى القاهرة .

كان « ايزر » مبتهجا يفرك يديه وهو يستمع إلى « موردخاى » ، ومن المؤسف أنه أبدى بعض الملاحظات غير المحببة عن « تخلف الضباط المصريين وغبائهم » ولم يكن يتصور بالطبع أن رجله قد تمكن من خداعه هو ، وأن أسراره كلها منذ هذه اللحظة كانت تتخذ طريقها إلى القاهرة ، وفى نهاية المقابلة ابلغ « ايزر » مرؤوسه المخلص بأنه قد عين رئيسا للمندوبين الإسرائيليين العاملين فى أوربا ، على أن يتخذ من فينا عاصمة النمسا مقرا دائما له .

ولقد برهنت المخابرات الإسرائيلية ، بهذا القرار الذى لا نستطيع وصفه بما يستحق علنا ، على أنها أبعد ماتكون عن فهم قواعد اللعبة

فهى لم تكتف باعادة موردخاى كودار إلى عمله الأصلى ، بل تكرمت ومنحته ترقية ايضا ، مما يدل على انها اعتبرت سقوطه البطولى فى قبضة القاهرة عملا من الأعمال الجيدة التى تستوجب مكافأته .

وفى أول يوليو سنة ١٩٥٥ ولم يكن قد مضى عام على انفجارات القنابل الخارقة فى القاهرة ، أرسل « موردخاى » أول رسالة سرية إلى رؤسائه الجدد ، موقعة باسم حركى ، وفى الأسبوع التالى تسلمت المخابرات المصرية منه قائمة بأسماء وعناوين الضباط الإسرائيليين فى أوروبا ، مع بيان مفصل للكود الذى يستخدمونه ، ومفتاح الشفرة الخاصة بسفارة إسرائيل فى فينا . ولابد من الاعتراف بأن جهاز المخابرات المصرية ، الذى كان فى بداية خطواته نحو تدعيم وجوده ، قد استفاد فائدة عظمى بمعلومات « موردخاى » ليس فقط بالطريق المباشر ، ولكن فى مجال التنظيمات الداخلية أيضاً .

كانت القصة واحدة من القصص النادرة فى التاريخ ، فالمخابرات لا تنجح فى التسلل إلى صلب تنظيم المخابرات العادية ، إلا فى ظروف من الصعب توافرها بكثرة ، وللخطورة الخيالية التى تنجم عن مثل هذه الحالات ، تحرص أجهزة المخابرات حرصا هائلا على انتقاء ضباطها ، وإعدادهم إعـــدادا نفسيا ومعنويا ، بعناية فائقة ، لتحصينهم ضد أى محاولة لاغوائهم ، أو استمالتهم عن طريق الاقناع الايديولوجى ، ومن القوانين التى لا يسمح أى جهاز المخابرات فى العالم ، باستثناء الجهاز الإسرائيلى ؛ بمخالفتها تحت أى ظرف ؛ قانون أساسى يحتم تخيير ضابط

المخابرات من المواطنين الخالصى الوطنية ، الذين لايحتمل أن تكون قطرة دم أجنبية واحدة ، قد تسللت إلى عروقهم .

والغريب أن موردخاى كيدار كان إسرائيليا ، أو أحـــق الإسرائيليين بهذا الوصف إن شئنا الدقة ، ولد فى فلسطين ، وبوصفه يهوديا سابرا فان ولاءه لإسرائيل لم يكن مشوبا بالولاء لأى وطن آخر كمعظم الإسرائيليين الوافـــدين من دول أجنبية ، كذلك كان متدينا ينحدر من أسرة كان عميدها « حاخاما » ، ورغم أنه تلقى علومه العسكرية فى مدرسة الحاجاناه : وهى معهد عسكرى بدائى ، بالإضافة إلى دراسة سريعـــة فى دورة تدريبيـة فى « البالبام » - فرع البالماخ البحرى — إلا أنه كان عسكريا حتى أطراف أصابعه .

ولعل الصفة الأخيرة هى الدافع إلى تعاونه المخلص مع أعدائه الطبيعيين ، فطبقا لأقواله التى أدلى بها فيما بعد بشجاعة خارقة ، كان موردخاى يشعر بالحسرة والمهانة وهو يرى الرتب العسكرية تنهال جزافا على كل من هب ودب فى الدولة الجديدة ، ولقد افتقدت كبريائى العسكرى وأنا أؤدى التحية لبنيامين جبلى الذى كان سباكا ، أو المدير نفسه « ايزرهاريل » فكلنا يعرف أنه كان عاملا فى مصنع خل ، ولم تزد رتبته فى الجيش البريطانى عن « نفر » ، فكيف بالله عليكم حصل على رتبة مقدم دفعة واحدة ؟ .

وجدت ثورته إذن متنفسا فى التعاون مع المصريين وكان متأجج

الحماس لم يدخر جهدا فى مساعدتهم ، وسوف تظل الفترة التى انقضت منذ مغادرته مصر إلى يناير ١٩٥٩ ، من الفترات الباهرة فى تاريخ الصراع بين الجهازين ، ولست أعتقـــد أن بمقدور مخلوق أن يقيم المعلومات التى قدمها هذا الجاسوس الفذ لمصر ، كذلك لن يجرؤ أحد على نشر تفاصيل هذه المعلومات ، إلا بعد فترة طويلة من الزمن ، وربما لا يسمح المصريون بنشرها أبدا .

كانت العواصم الأوربية هى نقطة الوثوب إلى مصر ، بالنسبة لعملاء إسرائيل ، وكانت أيضا المجال القريب الحافل بوسائل الغواية، بالنسبة للعملاء المصريين الذين جندتهم إسرائيل لكى يعملوا لحسابها وكان « موردخاى » بحكم موقعه ، مطلعا على شخصيات العملاء من الطرازين . ورغم أن القاهرة لم تكن تميل إلى الاعلان عن الجواسيس الذين يسقطون فى قبضتها . إلا أن العدد كان وفيرا . وفى بعض الحالات سمح لبعض هؤلاء الجواسيس بالعمل . مع وضعهم تحت السيطرة حتى لا تنتبه تل أبيب إلى أن الفراغ تحول فى لحظة القفص .

ولكن الحماس وحده لا يكفى إن لم يكن مرادفا للحذر .

فقد أفرط « موردخاى » فى نقد قيادته الإسرائيلية . وكان يتنـــاول شخصيات كبار الضباط بالتجريح والسب فى مجالسه الخاصة . وفى أغسطس سنة ١٩٥٨ رفض أن يستقبل ضابطا يدعى

« شيلوش » عند زيارته للنمسا ، وفى نفس الوقت لاحظت تل أبيب أن عملاءها الذين يوجهون من أوروبا يتساقطون فى قبضة المخابرات المصرية تباعا . حتى فى الحالات التى كانت القاهرة تعمد فيها إلى « طهو اللحم دون أن تتصاعد رائحة الشواء » ففرضت رقابة صارمة على « موردخاى » .

وسرعان ما أثبتت المراقبة أن « موردخاى » يلتقى بطريقة خفية ببعض المصريين فى أوربا . وقيل أثناء محاكمته أنه التقى أكثر من مرة بالكولونيل عثمان نورى الذى كان مديرا المخابرات . ولم يكن « موردخاى » فيما يبدو ، يتوقع أن يوضع تحت المراقبة . كما أن المصريين لم يلفتوا انتباهه إلى ضرورة التأكد من « خلو الطريق » عند اتصاله بهم خوفا من أن يشعر بالمهانة بوصفه أحد المحترفين المهرة .

وذات يوم قال له أحد الضباط المصريين : موردخاى . . . ثمة شخص يتبعك .

وكان جواب موردخاى على هذه الملاحظة أن ابتسم ساخرا ثم هز كتفيه ، وفى تلك الليلة صمم على أن يثبت لمحدثه أنه كان مخطئاً ، فادعى أنه نسى بعض الوثائق وطلب أن يلتقيا مرة أخرى فى محطة للاتوبيس .

وبعد أن سار الضابطان معـــا إلى شارع جانبى توقفـه

موردخاى فجأة ثم هتف : أين هـذا الذى كنت تتخيل أنه يقتفى أثرى ؟ .

وفى اليوم التالى اتصل « موردخاى » بضابط اتصاله المصرى وطلب موعدا عاجلا، وكان صوته قويا، ولكن نبرة من القلق تخللت عباراته، وبعد أن ألح بشدة تحدد الموعد فى مساء اليوم التالى مباشرة وكانت أول عبارة نطق بها عندما جاء : « إنهم يستدعوننى إلى تل أبيب » . وأغمض الضابط المصرى عينيه لحظة، كان الموقف دقيقا كما كان حساسا، ورغم أن تل أبيب استدعت رجلها من قبل مرات عديدة ، إلا أن شيئاً ما كان يلوح فى الأفق هذه المرة .

— يجب أولا أن نستشير القاهرة .

كان موردخاى يحدق بعينيه الزرقاوين فى وجه محدثه ، ولم يكن الموقف يسمح لأى منهما بإصدار الأوامر ، فقد جاء كل منهما من عالم مختلف ، ومتناقض ، إلا أن العمل المشترك كان دافعا لكى يحس كل منهما بما يجيش فى أعماق الآخر . ومن المؤكد أن « موردخاى » قد غمره الشعور بالتحدى لأنه قرر فى النهاية أن يذهب ، ولست أشك أبدا فى أنه استشعر الخطر ، ولكنه رأى بما جبل عليه من تمرد وجرأة أن يواجه قدره .

ومن المحزن أن القاهرة أرسلت برقية عاجلة إلى فيينا تنصح فيها

« موردخاى » بأن يمتنع عن هذه الخطوة القاتلة ، ومع النصيحة عرض بأن يأتى إلى مصر ، لكى يلقى مايستحقه من الترحيب والتكريم وفاء له ، أما إذا كانت لديه أسباب خاصة تحول بينه وبين الإقامة فى مصر ، فان القاهرة على استعداد لأن تكفل له حياة كريمة فى المكان الذى يختاره من العالم ، وبالأسلوب الذى يروق له ، إلا أن الأوان كان قد فات .

فى الوقت الذى كانت فيه أجهزة الارسال تدق بهذه البرقية ، كان « موردخاى » محلقا فى الجو متجها إلى تل أبيب ، ولم يكن من المتصور أن يقدم على هذه الرحلة بمثل هذه السرعة . وبذل ضابط اتصاله المصرى جهودا خارقة لكى يعثر عليه ، وتركت له رسائل باللغة العربية تحت عقب الباب فى مسكنه ، وفى السفارة الإسرائيلية فى فيينا اتصل مجهول عن طريق التليفون مستعلما عن مكانه ، وبعـــد أن انقضت أربعة أيام دون العثور على « موردخاى » اتصلت فتاة نمسوية تليفونيا بمسكنه فى تل أبيب ولكن رجلا لم يفصح عن اسمه أجاب بأنه ليس موجودا . وعلى ذلك أصبح مصيره قد بات مؤكدا .

وعرف فيما بعد أن « موردخاى » واجه محاكمة سرية ، وأنه كان شجاعا ولم يتخاذل مطلقا ، بل صب لعناته على الادعاء والشهود

والقضاة أنفسهم ، وعندما يئس الإسرائيليون من الحصول على اعتراف صريح منه أطلقوا سراحه ووضعوه تحت المراقبة لمدة ثلاثة أيام إلى أن اعتقلته الشرطه بتهمة القتل ، وكان كل شيء قد أعد بعناية ، القتيل والشهود والأدلة ، وفى قاعة المحكمة سخر « موردخاى » من المسرحية الخسيسة التى دبرت له ، ورفض بإصرار أن يدافع عن نفسه .

وصدر الحكم بسجنه عشرين عاما

* * *

٢

رجل ذو أربعة أسماء
أولريتش شنيفت

ما زال سر اتصال المصريين به طلسما لا يجد تفسيرا حتى الآن . وأغلب الظن أنه هو الذى اتصل بهم . ولكن المؤكد أنه كان جاسوساً بارعاً موهوباً قدم لمصر خدمات جليلة ضخمة حتى قبل أن يتلقى أى تدريب على التجسس . فقد كان ضابطاً واسع الثقافة ، منحرفاً إلى حد ما ، مغامراً لا تعوزه الجرأة ، كما عاش حياة غريبة لا يستطيع غيره أن يكررها أبداً .

ولد « أولريتش شنيفت » فى (كوننجربرج) بألمانيا سنة ١٩٢٣ ، وكان طفلا سيء الحظ منذ بداية عهده بالحياة . فقد توفى أبوه بعد ولادته بشهرين ، وبعد شهرين أيضاً لحقت به أمه ، وهكذا أصبح « أولريتش » إنساناً وحيداً ولما تمض أربعة أشهر من عمره .

ولما كانت الأسرة بلا أقارب ، فقد تبنته أسرة ألمانية تدعى « مولر » تبنت معه طفلا يهودياً يدعى « ادوارد » . وكانت طفولة

« أولريتش » المفعمة بالأسى تحمل فى طياتها الدليل على أن تهمة اضطهاد الألمان لليهود — المماثلين بالنسبة له فى أخيه فى الرضاعة اليهودى — ليست سوى خرافة مصطنعة وكاذبة .

وعندما بلغ سن الجندية ، انخرط « أولريتش » فى صفوف الجيش الألمانى ، وألحق بوحدة من وحدات الصاعقة ، وعرف عنه فى تلك الفترة الشرود والميل إلى العنف ، مع إيثار مصاحبة النساء ومعاقرة الخمر ، لكنه اتصف أيضا بالرومانسية ، وكان من عشاق الموسيقى . وأثرت هذه الطباع الغريبة مع النزعة المتفوقة التى سادت ألمانيا فى مطلع الحرب العالمية الثانية آثارها ، إذ كان مقاتلا شديد البأس ، وقد حصل على عدد من الأوسمة ، ورغم أنه جرح جرحا بليغا أثناء معارك الجبهة الشرقية إلا أنه تماثل للشفاء وعاد بسرعة إلى الميدان ونقل إلى إيطاليا . وفى الأيام الأخيرة للحرب سقط « أولريتش » أسيراً فى أيدى الأمريكيين ، ولم يدم بقاؤه فى الأسر سوى بضعة أيام تمكن بعدها من الفرار ، وهام على وجهه فى وادى نهر « البو » . وعندما أدرك أن وطنه قد منى بهزيمة قاصمة ، أعدم كل أوراقه ولجأ إلى طبيب ألمانى هارب لكى يجرى له عملية ختان ، وكان « أولريتش » يغرق فى الضحك عندما يتذكر هذه القصة . فقد تعجب الطبيب لأن أحد الفارين يطلب منه مثل هذا الطلب الذى بدا له غريبا ، ولكن أولريتش استعان بقدراته وصوبها إلى رأس الطبيب الذى تملكه الفزع ، ثم اقتاده إلى كوخ مهجور من أكواخ المزارعين ، وهناك خلع سراويله ودس مدية فى يد الطبيب صارخا فى وجهه أن يسرع !!

واضطر الطبيب التعس إلى تنفيذ رغبته ، ولم يكن فى الكوخ أى أدوات لتطهير الجرح ، كذلك لم تكن هناك ضمادات . ولكن أولريتش لم يكن ليبالى بمثل هذه التفاهات الساذجة ، إذ أمر الطبيب أن يصب شيئا من الكونياك على موضع الجراحة العاجلة، وبعد ذلك نزع جيب سترته ليستخدمه فى الرباط ، وفى تلك اللحظة سقطت دانة مدفع ثقيلة بالقرب من الكوخ فلاذ الرجلان بالفرار ، وكان مشهده مؤثراً وهو يقفز كطير (البطريق) وسط الحشائش والدماء تنزف فى ثيابه .

وبعد ذلك زعم أولريتش أنه يهودى هارب من الاضطهاد ! !

ومن المذهل أن أولريتش نجح فى تقمص شخصية جديدة ، إلى حد أنه ألحق بمعسكر اللاجئين فى ميونخ ، واكتشف أن انتحال اليهودية يعود بكسب كبير ، إذ كانت المساعدات ، وهبات الأغذية ، والملبوسات ، تنهال على اليهود « المساكين » من المنظمات الخيرية ، ويبدو أن اللعبة راقت فى عينه فقد سافر إلى كولون ، وهناك قدم نفسه إلى مكتب الجمعية العبرية لإيواء المهاجرين ، حيث ادعى أن اسمه جبرائيل زوسمان ، وادعى أيضا أن أباه وأمه قد ذبحا على أيدى النازيين ، ولما وجد أن قصته لم تقابل بأية ريبة ، مضى خطوة إلى الأمام ، فسجل اسمه فى الوكالة اليهودية لكى يهاجر إلى إسرائيل ! !

وتوالت الخطوات بعد ذلك بطريقة روتينية ، إذ تسلم أولريتش أوراقه كمهاجر واستقل قطار المهاجرين إلى مارسيليا ، وفى الليلة

الأخيرة من عام ١٩٤٧ امتطى ظهر الباخرة « هاجاناه » متجها إلى إسرائيل ، ولأسباب تتعلق بالخلافات التى كانت تنشب أحيانا بين العصابات اليهودية وحكومة الانتداب البريطانية ، اضطرت « هاجاناه » إلى تفريغ حمولتها فى قبرص . وفى الجزيرة الصغيرة عادت روح المغامرة إلى محارب الصاعقة ، فقام بعدة محاولات مستميتة للهروب ، وأخيراً ، فى فبراير سنة ١٩٤٩ تمكن من الوصول إلى إسرائيل .

وبنجاحه فى الوصول إلى إسرائيل ، حقق أولريتش بمفرده ما يطمح أى جهاز مخابرات متقدم إلى تحقيقه : اجتثت جذوره تماما من بيئته التى ولد فيها ، وصنع بإحكام بالغ قصة « تغطية » ليس فيها أى نوع من الثغرات ، وزرع نفسه فى تربة جديدة ، ولكنه ارتكب خطأ جسيما لا يقدم على ارتكابه عميل مبتدىء ، إذ احتفظ فى جيبه بصورة صغيرة وهو فى زى الصاعقة الرسمى .

صدم أولريتش صدمة رهيبة بمجرد أن وطئت قدماه أرض الميعاد ، فالبلاد التى كان يتصور أنه سيجد فى رحابها نهاية لمتاعبه لم تكن جنة أبداً ، وكانت طوابير المهاجرين تتعثر فى المخيمات ، وبدلا من الهبات التى كانت تنهال عليهم فى أوروبا ، كان عليهم أن يكدحوا لكى تنهال الأرباح على طائفة الحكام التى احتكرت الحكم منذ نشأة إسرائيل ، وكان الشعور الغالب هو الشعور بالمحاصرة ، فالعرب يتحفزون من كل جانب والموت يتربص فى كل شبر من الأرض ، والدمار يغطى الأفق فى كل اتجاه .

وكان عليه أن ينخرط فى سلك الجيش الإسرائيلى بمجرد استقراره فى « الوطن » والتحق بمدرسة تدريب الضباط ، ولأنه كان جنديا ممتازاً فى جيش متقدم أصبح ميسورا له أن يترقى إلى رتبة ملازم فى صفوف الجيش الإسرائيلى الذى لا يمكن أن يقارن بقوات الصاعقة الألمانية . وكان مثار الدهشة أينما حل ، فلم يصدق أحد من المعلمين أنه لم يسبق له أن التحق بجيش ، وقد سئل أولريتش ذات يوم : كيف تقبلت الخدمة تحت العلم ذى الصليب المعقوف ثم نجمة داوود ؟ . وبهدوء أجاب : لم أجد فارقاً كبيراً بين الاثنين فكلاهما مؤسس على نظرية التوسع .

وبعد تسريحه من الجيش اختار كيبوتز « كيريات أنافيم » موطنا له ، حيث عمل فى فلاحة الأرض ، وكثيرا ما شوهد فى الليالى المقمرة وهو يتجول وحيداً عند مشارف الكيبوتز ، واشتهر بولعه باقتناء الأسلحة الصغيرة ، كما كان مشاغباً ينزع إلى الشجار لأتفه الأسباب . وقد ثارت حوله شائعات كثيرة بسبب علاقته بالنساء ، وادعت فتاة تدعى « ديبورا ما يلز » أنه غرر بها واغتصبها فى حظيرة لتربية الدواجن ولكن أحداً لم يتجاسر على التصدى له .

وكاد أمر أواريتش أن ينكشف ذات يوم ، فبينما كان يتناول الطعام فى قاعة الطعام الجماعية مع بقية أفراد الكيبوتز ، حدث أن ثارت مناقشة عارضة، ويبدو أن أحد الفلاحين قد سب ألمانيا والألمان ، لأن اولريتش لم يتمالك نفسه وقذف الرجل بطبق الحساء وهو يهتف :

أيها اليهود ال . . . . ولكن لحسن الحظ . لم تستوقف هذه الحادثة الانتباه ، وعزا الحضور سقطة لسانه إلى أنه مخمور ، أما اليهودى الذى أهين فقد نسى القصة كلها وهو يشكر السماء لأن أوليتش لم يحطم جمجمته .

وأثناء إقامته فى « كيبوبات أنافيم » نشأت الصلة بين « أوليتش » وأصدقائه المصريين. ورغم أن السجلات التى تحتوى على تفاصيل قصة تجنيده لم توضع تحت بصرى ، الا أنى أعتقد أنه جند أثناء زيارة قام بها إلى باريس ، إذ أنه اشترى مزرعة خاصة بمجرد عودته فى قرية « بجدل اشيكلون » وقد درج على ترديد قصة مختلقة عن ضربة حظ خيالية واتته فى المقامرة .

ومن المؤكد أن المصريين قد عثروا على أوليتش فى ماخور يدار للمقامرة ، وقد أفضى اليهم بحكايته الغريبة كلها ، ومن المؤكد أيضا أنهم قد نصحوا جاسوسهم بقائمة النصائح التقليدية التى يرددونها بصفة دائمة حتى الآن ، والتى تنصب كلها حول الحذر من النساء . والابتعاد عن المقامرة والاقلاع النهائى عن العربدة والسكر . وكان هو يستمع متظاهرا بالاقتناع ، ولكنه سخر من هذه المواعظ علنا فيما بعد ، وقال ساخرا : لقد تخيلت أنهم فى حاجة إلى « حاخام » .

وبسبب رذائله الماجنة تعرض أوليتش مرة أخرى للمتاعب . ففى ليلة باردة من ليالى يناير سنة ١٩٥٤ عثر على فتاة اسرائيلية من أصل آسيوى ، وكانت هذه الفتاة التى تدعى « أنجيه » تحترف بيع اللذة ،



ولريتش يبعد وجهه عن الكاميرا وسط الجماهير فى شوارع تل أبيب



الفتاة التى وشيت باولريتش تدخل إلى مقهى أمام سينما أرمون فى إحينا

فصحبها فى جولة طويلة إلى حانات «حيفا» . وشعر بسعادة غامرة عندما دعته إلى قضاء بعض الوقت فى غرفتها ، وهناك تجرد تماما من ثيابه وطفق يغنى ويصفر ، ثم تذكر صورته القديمة التى يحتفظ بها فأطلع رفيقته عليها وهو يقطر بمشاعر الزهو والخيلاء ، ولم يلاحظ بالطبع أنها أخذت ترتعد .

وسألته «ايجه» من بين أسنانها : ألم تخبرنى أنك إسرائيلى ياسيدى .

وأجابها أوليتش بلسان ملتو : إسرائيلى ؟! انى أحمل هذه الجنسية الكريهة رغم أنفى ياعصفورتى .

كانت واحدة من حماقات «أوليتش» الطائشة ، وقبل أن تشرق الشمس ، داهمته الشرطة الإسرائيلية بينما كان مستغرقا فى النوم بعد ليلة حافلة ، ورفض الإسرائيليون أن يسمحوا له بارتداء ثيابه قبل أن يجيب على بعض الأسئلة ، وأصر على أنه يهودى يدعى جبرائيل زوسمان ولكنه عجز عن تقديم تفسير مقنع لصورته اللعينة وهو فى ثياب الصاعقة ، وفى النهاية لم يجد مناصا من الاعتراف بماضيه ، وان كان قد زعم أنه اعتنق اليهودية باختياره ، كما أخفى علاقته بالمصريين ولم يشر اليها مطلقا ، وبعد مزيد من الاستجواب المرهق قررت السلطات الإسرائيلية طرده من إسرائيل مع مصادرة كل ممتلكاته .

وفى الرابع من فبراير سنة ١٩٥٤ وضع أوليتش على ظهر الباخرة الإسرائيلية «نجبا» وبمجرد أن وصلت الباخرة إلى «جنوة» ألقاه القبطان على الشاطىء وكأنه يتخلص من روح شريرة ، وفى الميناء الإيطالى

تلفت ذلك المغامر الغريب حوله ليكتشف أنه أصبح ذئبا وحيدا بلا نقود وبلا عمل وبلا مأوى ، ولكن أشد ما كان فى موقفه من قسوة أنه كان بلا جنسية . وكان طبيعيا فى ظل هذه الظروف النفسية أن يفكر فى أصدقائه المصريين . فاتخذ طريقه سيرا على الأقدام إلى القنصلية المصرية .

كانت الساعة تقترب من الخامسة بعد الظهر عندما دلف أولريتش من باب القنصلية ، وكان منظره منفرا ، ثيابه متسخة وذقنه كثيفة ، سحنته تنبىء بالفقر والحاجة ، وقد رفض باصرار أن يفصح عن شخصيته أو الغرض الذى جاء من أجله . واكتفى بأن طلب ابلاغ « الرؤساء » بأن ثمة شخصا « هام » يرغب فى السفر إلى القاهرة . وبعد إلحاح رضى أن يذكر المقطع الأول من اسمه « أولريتش » [3].

وفى المقابلة رفض موظف الاستعلامات أن يقدم له أى مساعدة وراح أولريتش يصرخ ويشتم ويتوعد ويتوسل دون جدوى ، وأخيرا يبصق على الأرض باشمئزاز ثم استدار خارجا .

كانت ليلة باردة أخرى فى انتظاره . ويبدو أنه قرر أن يهيم على وجهه . إذ أخذ يذرع الطرقات على غير هدى . ثم اتجه ناحية البحر ، الملاذ الدائم لكل من تضيق به الدنيا فى أى بلد . ربما لان امتداد البحر اللانهائى يترك فى النفس احساسا بالهدوء والسكينة ، وربما لأنه كان يفكر أن يتسلل كالفأر إلى أية سفينة دون أن يحدد وجهته ، وربما لأنه كان يفكر فى الانتحار . وفى زقاق ضيق مظلم شعر « أولريتش » أن هناك من

يتتبعه فعرج على زقاق ضيق آخر. ولكن وقع أقدام من يقتفي أثره ظل يتردد في أذنيــــه على الأرض المغطاة بالبلاط . وفي خضم الإرهاق والضيق والعوز والتوتر وثبت روح المحارب القديم فجأة . فضم قبضته وأسند ظهره إلى الحائط متحفزا .

— انني موفد من أصدقائك

هكذا همس الشبح الذي لحق به ، ووقف في مواجهته تماما. ولاحظ «أولريتش» أنه رجل قوي البنية يرتدي سترة من الجلد .

— أي أصدقاء تعني ؟

— المصريون

— المصريون ؟ انني قادم لتوي من عندهم .

ابتسم الشبح برقة ودس يده تحت إبط «أولريتش» ، وبعد أن سارا معا اكتشف أنهما أحياء واتضح بعد تبادل حديث قصير أن العالم لم ينته بعد . وعندما عبرا أمام حانة حقيرة تسمرت قدما «أولريتش» وغمز بعينه فقد كان يشعر بالظمأ ، ولكن رفيقه واصل السير وانتهى بهما المطاف في شقة صغيرة على مرمى حجر من القنصلية . كانت محتويات الشقة تنبيء عن استعداد مسبق لاستقباله . فعلى المائدة كانت أدوات الأكل معدة لفرد واحد بينما انبعثت من المطبخ رائحة تشد الانف . رائحة الأطعمة الألمانية الساخنة ، وطقطقة «السجق» في الزبد. وقد تجاهل «أولريتش» نصيحة رفيقه بأن يغتسل أولا ، وبعد ازدرد كمية من

الطعام تكون فيلا أفريقيا اشعل سيجارة ومد قدميه على المائدة وأغمض عينيه ثم استغرق فى النوم .

وفى صباح اليوم التالى اصبح اولريتش من الاثرياء .

فبعد أن قضى ليلة هادئة ونام ملء جفنيه وجد فى الصباح ثيابا جديدة وحماما ساخنا . ووجد أيضا صديقا قديما تبادل معه الحديث والذكريات. وكان من الضرورى ان يتلقى « اولريتش » قدرا مناسبا من التأنيب جزاء فعلته المنكرة فى حيفا . ثم جاء بعد ذلك الحديث عن المستقبل ، وقد أمر بأن يعود إلى المانيا وان يستقر فى فرانكفورت حتى يطمئن الإسرائيليون إلى انه ابتعد عنهم بما فيه الكفاية. ومن اجل حياة رغدة تسلم اولريتش عشرة آلاف مارك المانى وقيل ان هناك عشرة آلاف دولار تنتظره بشرط مرور عام كامل .

كان أولريتش بادى الابتهاج وهو يتلقى هذه المنحة السخية ، وقد تمتم ببعض عبارات الشكر ، وقد أبدى دهشته لأن الدولارات لن تصرف قبل مضى سنة، إلا أن محدثه لم يعر هذه الدهشة التفاتا ، وجاء اكتئاب أولريتش وتجهمت ملامحه ثم هتف : كنت أود أن أزور القاهرة. إننى أستطيع أن أقدم لكم خدمات جليلة، أليس كذلك ؟ ولكن الاقتراح لم يجد أذنا صاغية ، فقد أنهى محدثه المقابلة ونهض واقفا .

وفى « فرانكفورت » التقى الجاسوس الأسطورى بأخيه فى الرضاعة « إدوارد كلاين » ، وعمل فى متجر لبيع الملابس الجاهزة ، وزعم أن عمله

كان يدر عليه دخلا لا بأس به ، إلا أنه بدد العشرة آلاف مارك فى غضون ثلاثة أشهر ، ثم كتب رسالة مطولة إلى عنوان طوارىء كان يحتفظ به ، يطالب قرضا من رصيده . ولكن طلبه رفض دون ابداء الأسباب بالطبع .

وقبل ان تنتهى السنة بأيام قليلة ، وكان اوليفتش قد رسم دائرة حمراء على نتيجة الحائط حول اليوم الأخير عاد من المتجر ليجد أن ضيفا قد احتل الشقة فى غيابه ، وقد اصيب بالاندهاش وهو يرى الضيف قابعا فى الصالة وامامه منفضة مكتظة بمخلفات التدخين . وفى هذه المقابلة غير المتوقعة سلمه الضيف جواز سفر باسم « روبرت دونتز » وكان عليه ان يفتعل خلافا مع صاحب المتجر ثم يستقل الطائرة من فرانكفورت إلى روما ومن روما يتخذ طريقه إلى القاهرة .

وفى القاهرة كان « روبرت دونتز » شخصا مختلفا تمام الاختلاف عن « أوليفتش شنيفت » إذ استعاد حيويته ومرحه ، وكان يلفت النظر بأناقته ، ومنذ اللحظة الأولى اكتشف أى نوع من الاصدقاء يكون المصريون ، ففى المطار انتظرته عربة أمريكية فخمة ، وقضى الأسبوع التالى لوصوله فى جولات سياحية بهيجة ، كما دعى إلى حفلات عشاء خاصة مع مجموعة من كبار الضباط ، وخصص لاقامته شقة وثيرة فى حى مصر الجديدة ولم يشعر فى أى وقت بالحاجة إلى النقود .

وشيئا فشيئا بدأ أوليفتش فى التذمر وضاق ذرعا بالجـــولات والحفلات وحياة الجماعة ، وكان لابد أن يعود إلى طبيعته ذئبا وحيدا

كما تعود منذ أن خلق. وكثيرا ما كان يقود عربته ليلا ليقضى السهرة فى الحانات وبارات الفنادق الراقية وأماكن اللهو الوضيعة. فلم يكن هذا الرجل يعرف نمطا معينا أو مستوى خاصا به، وإنما كان انسانا تذوق من الحياة ونعم بحلاوتها وجرب الحاجة والفاقة والتشرد كما رفل فى حلل الترف أحيانا كثيرة.

وبعد انقضاء فترة الترحيب المناسبة بدأ العمل، وكان أوليتش تواقا إلى تأدية عمل ما بنفس القدر الذى كان ينغمس به فى المتعة. وبعد أسبوع واحد من العمل المنتظم اتضحت له حقيقة ان العمل فى الجاسوسية بكل مخاطره أفضل وأيسر مئات المرات من العمل المكتبى. إذ كان عليه ان يقضى معظم وقته فى إعداد ملفات كاملة تتضمن تقارير وخرائط بكل المنشآت العسكرية الإسرائيلية التى يعرفها: معسكرات التدريب وقواعد الطيران والمدرعات والمدفعية، بالاضافة إلى التحصينات ومحطات القوى الكهربائية والمصانع وحقول الالغام القريبة من الحدود، وفى قمة هذه اللجة المتلاطمة، كان عليه أن يجد الوقت الكافى لكى يلقى محاضرات فى القسم المختص باسرائيل فى المخابرات العامة، كذلك انتدب لكى يعقد دراسات فى اللغة العبرية للكوماندوز، وكان «أوليتش» جديرا بكل الأعمال التى اضطلع بها.

ولا شك أن أى انسان عادى لا بد أن يستمرىء هذه الحياة ويشعر بالأمان والثقة فى المستقبل، فقد انتهى إلى الأبد من حياته الاحساس بالقلق والخوف المتواصل من السقوط، والمتاعب المتعلقة

بندرة النقود ، واختفى من الوجود تماما أوريتش شنيفت النازى وجبرائيل زوسمان الإسرائيلى المزيف ، وحل محلهما «روبرت دونتز» الأستاذ الوقور الأنيق المتفرغ ، ولم يكن فى مقدور أى كائن باستثناء نفر قليل من ضباط المخابرات المصرية أن يكتشف الصلة بين « روبرت دونتز » وماضيه الحافل بالعجائب .

ولكن هذا الجاسوس لم يكن انسانا عاديا .

فى يوليو سنة ١٩٥٧ أبدى تبرمه من العمل المكتبى ، وطـــوال الصيف كانت حالته النفسية تزداد سوءا وإن كان يتظاهر بالمرح، وذات ليلة قاد عربته إلى جولته المعتادة فى البارات . وراح يعب الخمر إلى أنه فقد وعيه ، واثناء عودته من شارع الهرم إلى مصر الجديدة اصطدم بعربة خاصة ثم انحرف بشدة وارتطم بعمود إنارة ثم انقلب رأسا على عقب ، وعندما استخرجت « جثته » اتضح أنه كان ينزف بغزارة كما تحطمت ترقوته ، وأصيب فى أضلاعه برضوض خطيرة ، ومع ذلك كان مستمرا فى التنفس .

ولم يكن هناك بد من أن تسارع المخابرات المصرية لانقاذه . فسويت مسألة العربة الاخرى بهدوء وخصص له جناح مستقل فى مستشفى راق . وساعدته بنيته القوية على الشفاء بسرعة ، وكان عليه ان يتلقى للمرة الثانية قدرا مناسبا من التأنيب جزاء سلوكه المعيب . وبعد أن قضى فترة نقاهة عاد إلى عمله ولكنه كان يائسا .

ولما سنحت له فرصة اللقاء « بالمدير » لكى يناقش بعض المشاكل

المتعلقة بعمله ، دخل إلى المكتب بنفس القامة المعتدلة والابتسامة التى تعلو شفتيه بصفة دائمة ، وكان يعرف بالطبع ان تفاصيل حادثته الأخيرة قد رفعت إلى المدير حتى أدق دقائقها ، ولعل ذلك هو السبب فى انه ارتبك لحظة وتلعثم . وقد رمقه رئيسه الأعلى بنظرة هادئة ورحب به : وما ان فرغ « اولريتش » من عرض اوراقه حتى نحاها جانبا ثم همس بأدب : إننى ارغب فى الاستقالة ياسيدى .

كانت عبارته قصيرة ومهذبة ، وقد نطقها « اولريتش » باللغة العربية التى تعلمها بمجهود ذاتى ، ولكن المدير حدق فى وجهه باستياء واضح . وبعد فترة من التوتر هتف بالألمانية : حسنا ياهر « اولريتش » اكتب تقريرا فى هذا الموضوع وسوف انظر فى الأمر . وادرك «اولريتش» انه أساء اختيار الوقت،ولكن لم يعد فى إمكانه تدارك الخطأ ، لذلك وقف وقفة عسكرية ثم انسحب من غرفة المكتب بهدوء .

واذا سمحت لنفسى بالتدخل فى شؤون المخابرات المصرية ، وهذه خطيئة أعرف عن يقين مساوىء نتائجها ، فاننى اقترح نشر تقرير استقالة «اولريتش» على اوسع نطاق، لان هذا التقرير ليس إلا وثيقة فريدة تدل على عظمة وبراعة هؤلاء الذين تولوا توجيه وقيادة ذلك الجاسوس الفذ ، كما أنه يعد دستورا مثاليا لكل من يرغب فى احتراف الجاسوسية .

بدأ «اولريتش» تقريره بعرض موجز للخدمات التى قدمها باخلاص لمصر. ثم استطرد إلى شرح اقتناعه بأن "الصراع مع "الصهيونية يستلزم أقصى حد من الفدائية والتضحية بالذات. وكان رأيه أن الموقف يتطلب خروجا

جريئا على الأساليب التقليدية، وضرب مثلا بالوحدات الجوية الانتحارية اليابانية . وقال ان اكبر خطأ وقع فيه قائد سلاح المقاتلات الألمانى « اوداف جالاند » انه رفض تكوين مثل هذه الوحدات فى سلاح الجو الألمانى . وبعد ذلك قال « أوراليتش » ان القاعدة المعمول بها فى عالم المخابرات تحرم استخدام الجاسوس الذى سبق ان احترق مرة اخرى فى نفس الميدان . وأنه يرى ان بمقدوره كسر هذه القاعدة . بصرف النظر عن النتائج . وفى نهاية التقرير طرح « اوراليتش » خيارا واحدا امام رؤسائه . اما ان يوفد من جديد إلى إسرائيل . واما ان يعتزل العمل .

وقال كبار الضباط : ان هذا الرجل مخلص وبارع ووفى ولكنه معتوه . فلم يسبق فى التاريخ ان عاد جاسوس باختياره إلى المكان الذى طرد منه . وقال ضابط من اصــــدقاء « اوراليتش » له : انى اثق فى مقدرتك وذ كائك . ولكن ماذا بشأن الحظ ؟ واجاب « اوراليتش » باندفاع غريب : الحظ ؟ انى أسوأ مقامر فى هذه الارض . ومع ذلك فأنا اثق بأن الاوراق الرابحة لاتتجه نحو طرف واحد دائما .

كانت الرغبة العارمة فى العودة إلى التجسس هى سر توتره النفسى وسبب حادثته التى كادت أن تودى بحياته . فرغم أنه محترف إلا أن حماسه كان يفوق حماس الهواة، وكان يسخر بمرارة من احتمال سقوطه فى ايدى الإسرائيليين بضربة حظ عشواء، وحتى فى مواجهـــة هذا الاحتمال كان يكرر بصدق أنه لن يدلى لهم بأية معلومات . وامام

هذا الإصرار الغريب ، وافقت المخابرات المصرية على إيفاده مرة أخرى إلى إسرائيل ، وقال أحد الضباط تعقيباً على هذا القرار : إننا نزج بالقطط فى جحر الفئران ، ولكن هذا القط يتدلى من عنقه جرس وان يمسك بفأر واحد أبداً .

واستلزمت العملية عددا من الإجراءات المعقدة ، فى محاولة مستميتة وباهظة التكاليف لتأمينها ، فأجريت جراحة لأولريتش لاستئصال ملليمترات من شحمتى أذنيه ، وشدت جفونه قليلا لأعلى ، وعدل شكل عظمة أنفه وبعد ذلك عمد الجراح إلى إحداث ندبه غائرة فى وجنته وفكه الأيمن ، وعندما ألقى نظرة على ملامحه فى المرآة هتف بحبور : يا إلهى إنى شخصياً لم أتمكن من التعرف على نفسى : كانه الجاسوس المرح ميالا إلى الدعابة حقا ! .

وأرسل «أولريتش» إلى مرسيليا حيث قضى أربعة أيام بلا عمل ، ومن مارسيليا رحل إلى مدريد لينفق شهرا كاملا فى ملاهى العاصمة الاسبانية ، ثم عاد إلى مارسيليا ليستقل الباخرة إلى حيفا ، والطريف أنه وصل إلى ميناء حيفا فى الليلة الأخيرة من ديسمبر سنة ١٩٥٧ بعد عشر سنوات بالضبط من رحلته على الباخرة «هاجاناه» وخلال هذه المدة ، تغيرت أشياء كثيرة فى العالم .

كان اسمه المرضح فى وثيقة سفره هذه المرة ، دافيد وايزبرج ، ولدهشته الشديدة لم يصادف أية متاعب مع موظفى الجوازات والجمارك واستأجر غرفة فى فندق كبير بجبل الكرمل ، وعلى الفور شرع فى

إنجاز مهمته ، فالتقط صورا عديدة للميناء والتلال التى خلفه ، والتحصينات ودشم المدافع والسفن الحديثة ومحطات الرادار ، كان متحمسا إلى أقصى حد ، وهذه صفة ضرورية لمن يرغب فى احتراف الجاسوسية .

لم يكن أولريتش يتوقع أى خطر ، لذلك عاد إلى متعه المحببة دون أن يعبأ بالمحاذير وأصبح السائح الثرى معروفا فى بارات حيفا كلها ، لذلك تعرفت عليه النسوة الاستقراطيات وبنات الشارع أيضا ، وعلى حد تعبير أحد زملائه ، كان رجلا من الفولاذ الممزوج بالنزوات ، وسببت له نزواته مشاكل عديدة مع الشرطة ، وكان المفروض أنه يحرص على البعد عن الشرطة شأنه فى ذلك شأن معظم الجواسيس ولكنه كان طرازا فردا .

وكانت وسيلته فى الاتصال بالقاهرة لا تتعدى الرسائل وقد زود بقائمة من المواد الكيمائية ليركب أحباره السرية بنفسه ، وكانت آلة تصويره عادية تتدلى علنا من كتفه ، وقد رتب له وسيلة نقل ممتازة فيما يختص بالأفلام ، إذ كان يسلم كل مجموعة منها يوم السبت من كل أسبوع لأحد الدبلوماسيين الأجانب، أما الرسائل فكان لديه عنوانان للمراسلة أحدهما فى مارسيليا والآخر فى هل جيت ـ لندن ، وقد أبدى أسفه أكثر من مرة لأنه لم يزود بجهاز لاسلكى .

ومن العوامل التى أدت إلى نجاحه فى مهمته بتفوق ، أنه كان واحدا من مواطنى إسرائيل لفترة زادت على أربع سنوات ، فكانه

على درايه بالمجتمع عارفا بالعادات والقوانين ، وإن كان مولعا بالخروج على القانون ــ خبيرا بالطرق والمواصلات ، وكان من المستحيل على أى إنسان رآه من قبل أن يتعرف عليه ، وقد حذر تحذيرا كافيا من سوء الحظ ، ولكنه كان يعتقد بقوة أن « النحس » لا يمكن أن يلازم لاعبا واحدا بصفة منتظمة لذلك علاه الوجوم عندما ألقت الشرطة القبض عليه .

كانت حادثة سقوطه طريفة بقدر ما كان هو طريفا ، فأثناء جولته ليلة بجوار معسكر للجيش ، اشتبه أحد الجنود فى شخصه دونما سبب ظاهر والأرجح أن الجندى كان من هواة الرشوة ، وربما كان أولريتش مخمورا برغم أنه ينكر ذلك بشدة . وقد احتدمت المناقشة بين الاثنين إلى حد أنه لوح بقبضته فى وجه الجندى وتدفقت من فمه ألفاظ السباب ، وانتهى العراك فى مركز الشرطة ولم يجد هو تفسيرا مقنعا لتلك الجولة الغامضة حول معسكر حربى ، كما أن الأفلام التى ضبطت فى حوزته أثارت الشكوك بقوة !

وعندما تولت المخابرات الإسرائيلية التحقيق ، اتضح أن الأفلام لم تكن كل ما فى جعبته ، بل كانت بصحبتها مجموعة من المعدات الغريبة ، مسدس قصير المرمى على شكل قلم أبنوس ، وحبة منشطة لمقاومة الإرهاق العصبى ثم كمية من السم تكفى لقتل أسد فى ثوان قليلة ، وكانت غرفته فى الفندق بريئة وعادية ولكن تفتيشها بدقة أسفر عن اكتشاف سائل سرى للكتابة مخبأ فى أنبوبة « كريم » من النوع الذى تعبأ فيه أدوية الروماتيزم .

واقتيد « أولويتش » إلى مبنى إدارة مكافحة التجسس الإسرائيلية « شاباك » فى شارع لوحامى هاجيتوؤت ، وهناك وضعوه فى غرفة بلا نوافذ وحرموه من النوم وأجبروه على الوقوف عاريا تحت صنبور يرسل ماء باردا ثم ساخنا على التوالى ، ولم يكن التعذيب فى ذاته سبب شعوره بالضيق ، ولكنه كان يفكر فى الخيبة التى منيت بها مقترحاته التى أسسها على « كسر القواعد التقليدية » ، وكان يأمل فى خداع الإسرائيليين مرة أخرى ، ولكنه كان واهماً .

كانت الأدلة أقوى من أن يجد لها المبررات ، ولما وجد الإسرائيليون أنه مصر على الإنكار عمدوا إلى زيادة جرعات التعذيب ، وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى الجحيم اقتادوه إلى غرفة التحقيق ، فأخذ يسب ويلعن ويقسم بكل الأديان السماوية أنه برىء ، ولكن أحدا لم يصدق ، فأدوات التجسس كانت تحملق فى وجهه وكأنها حشرات خرافية من النوع السام .

وبعد أن استنفد طاقاته جميعا تهالك وأخفى وجهه بيديه ، ثم بدا كما لو كان قد قرر أن يفضى بكل ما لديه ، فبلل شفتيه بلسانه وتلعثم ، ولاحظ بدهائه الغريزى أن الترقب واللهفة قد تملكا المحققين فطلب كأسا ، وكانت فرصة نادرة فى مثل هذه الظروف ، لذلك قدمت له الكئوس بسرعة ليطفىء ظمأه ثم بدأ يتكلم .

ولسوف تظل فى قصة « أوراريتش شنيفت » معجزتان خارقتان لا يعرف أحد تفسيرا لهما إلا هو ، فقد احتسى كمية رهيبة من الخمر

الرديئة إلى أن احمرت عيناه وترنح بشدة ، ومع ذلك لم يذكر أى كلمة عن ماضيه وتمكن من إقناع الإسرائيليين أنه سائح فعلا وأنه يعمل لحساب المصريين طمعا فى النقود ، وزعم أنه التقى بفتاة مصرية فى مارسيليا وأنه هام بها حبا فورطته ، وأدت خبرته فى ميدان المخابرات ، والسنين الطويلة التى قضاها فى هذا الحقل ، إلى اختلاق القصة بإحكام بالغ حتى أدق تفاصيلها ، والجلى أن هـــذا الثعلب يتمتع بإرادة فولاذية حتى فيما يتعلق باللاشعور .

أما المعجزة الثانية فغاية فى البساطة ، إذ أن الإسرائيليين قد حصلوا على بصمات أصابعه كإجراء روتينى ، كان من المفروض أن تراجـــع هـذه البصمات على البصمات المحفوظة لدى المخابرات الإسرائيلية بشكل روتينى أيضا ، والمذهل أن أحداً هناك لم يفطن إلى حقيقة شخصيته .

ولقصر المدة التى قضاها فى التجسس صدر الحكم بسجنه سبع سنوات فقط .

٣

الجاسوس وعشيقته

إسرائيل بيير - ديانا ذهابي

لو أن كاتباً من كتاب القصص الخيالية ، حاول أن يرسم في قصصه صورة لجاسوس خراف ، لما تمكن خياله من ابتكار شخصية بهذا القدر من التعقيد أبداً ، ضابط برتبة كولونيل ، أستاذ في جامعة تل أبيب ، مستشار شئون الأمن في الحكومة الإسرائيلية ، مؤرخ في وزارة الدفاع ، محرر في جريدة هامشمار ، ثم المعلق العسكري لجريدة ها آرتس ، الصحيفة الرسمية لحزب الماباى الحاكم ، وأخيراً المستشار المقرب من رئيس الوزراء ، دافيد بن جوريون نفسه .

كان الدكتور إسرائيل بيير ، وهو رجل نحيل أصلع يكسو الاحمرار وجهه ، هو القائم بكل هذه الوظائف في إسرائيل ، حتى لحظة اعتقاله ، ليلة عيد الفصح سنة ١٩٦١ ، وكان نبأ القبض عليه بتهمة التجسس بمثابة صدمة هائلة للرأى العام الإسرائيلي ، كما أدى إلى زوبعة عاصفة في أروقة المخابرات الإسرائيلية ، وعندما نظرت قضيته أمام المحكمة قال ممثل الادعاء في منطقة تل أبيب « أ . ليبتون »

أن إسرائيل بيير كان مطلعاً على أسرار الدولة وأنه أفشى هذه الأسرار لأعداء إسرائيل .

والحقيقة أن « بيير » لم يكن مطلعاً على أسرار إسرائيل فحسب ، ولكنه كان وثيق الصلة بمؤسسات عسكرية وأجهزة مخابرات فى القارة الأوربية ، كان صديقاً لعدد كبير من الجنرالات والقادة ودعى أكثر من مرة لإلقاء محاضرات فى أكاديمية توينجين البروتستانتية وفى قيادة جيش النرويج ، وعقد ندوات فى معظم رئاسات هيئات أركان حرب الجيوش الأوربية ، وقام بجولات واسعة فى قواعد حلف الأطلنطى وحضر المناورات السرية والمعلنة أيضاً .

والمذهل أن هذا الضابط اللامع الذى اشتهر باسم « ليدل هارت » إسرائيل ، والذى ضبطت فى حوزته المفكرة الشخصية لبن جوريون ، لم يكن ضابطاً ، ولم يحصل أبداً على درجة الدكتوراه .

كان الرجل نموذجاً نادراً المقدرة على التزييف والادعاء ، فبعد أن ترقى فى سلك الجيش الإسرائيلى إلى رتبة كولونيل، تقدم إلى جامعة تل أبيب مقترحاً أن تنشىء له كرسياً لمادة التاريخ وراح يلقى المحاضرات وينشر المقالات ، ثم عمد إلى تأليف مجموعة من الكتب ، ونشرت له دار « عم عوفيد » وهى دار نشر إسرائيلية ، كتاباً بعنوان « مشاكل الأمن » ، وفى ميونخ نشر له كتاب عن « الشرق الأوسط بين الشرق والغرب » وفى آخر أيام حياته أنهى كتاباً بعنوان « أمن إسرائيل أمس واليوم وغداً » .



د. إسرائيل بير

وفيما يتعلق بنشأته ، اختلق « بيير » قصة عادية لا تثير الشكوك .
فقد زعم أنه ولد فى فيينا وأن أباه من كبار رجال الصناعة الأغنياء ،
وبعد أن أتم دراسته الثانوية ، تعلم فن الإخراج على يد
« ماكس وينهارت » كبير المخرجين الألمان ، ولكنه هجر المسرح
بمجرد أن تولى هتلر السلطة واقتنع بضرورة العمل كمحارب . وانضم
إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، ثم إلى منظمة « شوتمى بوند »
ومعناها « حلف الدفاع » والتحق بالأكاديمية العسكرية فى فيينا حيث
تخرج فيها ضابطاً محترفاً ، إلا أن أسرته كانت تود أن يحصل على
شهادة جامعية ، لذلك درس فى أكاديمية الفنون وحصل على دكتوراه
فى الفلسفة ، ولما أرسل هتلر جماعته المسلحة بقصد الاطاحة بالحكومة
الأسبانية دعت الأخيرة المتطوعين الأوربيين لمساعدتها ، وعندئذ
ذهب « بيير » إلى أسبانيا وتطوع فى الفرقة الحادية عشرة — لواء
تالمان — ووصل إلى منصب قائد كتيبة .

ولتبرير قدومه إلى فلسطين زعم « بيير » أنه قرأ كتاباً عن الحركة
الصهيونية بعد عودته من أسبانيا ، وأنه اقتنع بضرورة العمل من أجل
إقامة وطن قومى لليهود ، ولعل الثغرة الوحيدة فى قصته تكمن فى هذه
النقطة ، إذ أن الرجل الذى قرر أن يناضل فى سبيل فكرة تعتمد
أساساً على التمييز الدينى ، والتعصب كان مناهضاً للدين ، وكثيراً
ما كان يصرح بأن الدين ليس سوى بديل خيالى عن العلم ، إلا أن
أحداً لم يكتشف هذا التناقض إلى أن قبض عليه .

وفى أرض الميعاد كانت كل الظروف مهيأة لاستقباله فقد كانت

عصابات الهاجاناه التي شكلها اليهود لتتولى مهمة تخريب القرى العربية ، وقتل سكانها ، تتكون من الشباب اليهودى المفتقر إلى الثقافة العسكرية وكان معظم القادة قد تلقوا تدريباً سطحياً كجنود عاديين في الفيلق اليهودى الذى شكله الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولأن « بيير » كان يرتدى رتبة ضابط وفى حقيبته شهادة الدكتوراه ، أصبح مديراً لعمليات الهاجاناه فى الجليل .

وكما هو متوقع ساعدته موهبته وخبرته وشهادته العلمية المزيفة على شق طريقه بسرعة البرق وسط عصابات من الجهلة والبدائيين ، وهكذا أصبح مديراً للتخطيط ثم رئيساً لأركان حرب الجنرال إيجال يادين الذى كان قائد الجيش فى حرب سنة ١٩٤٨ ، وانضم إلى المابام ثم انسلخ عن المابام وانضم إلى الماباى ووافقت جامعة تل أبيب على تعيينه أستاذاً للتاريخ ، وفى حفل التكريم الذى أقيم بهذه المناسبة ألقى بن جوريون كلمة هنأ فيها ذلك الضابط والمقاتل العظيم الذى لن يجود الزمن بمثله كثيراً .

وكما كانت حياته العامة ، حفلت حياته الخاصة بالتنوع أيضاً ، فقد استهوته امرأة تدعى « ريفيكا دورز » ولم تكن ريفيكا ذات جمال أخاذ ولكنها استولت على لبه عندما رفضت أن تستجيب لنزواته واكتشف هو أن هذه المرأة الخشنة الشفتين المكتنزة الأرداف لا تعبأ بمطارداته المتواصلة ، فأسرع إلى المختبر التكنولوجى الذى كانت ريفيكا تعمل فيه كمساعدة المعمل ، فى مستعمرة « تل هاموشير »

وسألها سؤالا واحدا : هل تتزوجينى ؟ . . ولدهشته الشديدة أجابت المرأة بالإيجاب .

ولكن عواطفه الجياشة مالبثت أن خمدت بمجرد أن حصل على مساعدة المعمل الشابة ، وكانت اهتماماتها العلمية ونفورها من رقاعته الجنسية سبباً فى تحول رغباته مرة أخرى وبنفس القدر من اللهفة إلى امرأة متزوجة من مواليد رودس — تدعى « أورا » فطلق ريفيكا واتخذ من أورا خليلة له . وعندما علم زوج أورا بالعلاقة الشائنة التى ربطت بين زوجته وبين الدكتور السيء السمعة انتظره بالقرب من حانة « أتوم » وأوسعه ضرباً ، وفى اليوم التالى شوهد « بيير » فى وزارة الدفاع والكدمات تعلو عينيه وقد فقد بعض أسنانه وزعم أنه تعرض لحادث سيارة .

كان « بيير » رجلا متقد الحيوية شغوفاً بالنساء ، ورغم أنه كان بارز العظام واهن الجسد ، أصلع ، ورغم مشاغله العديدة ، وواجباته المزدحمة إلا أنه كان غارقاً فى علاقاته الخاصة بالنســـاء وكانت لديه الدراية على جذب قلوب النسوة وخاصة الفتيات الصغيرات السن ، وكان يشاهد فى الحانات والملاهى الليلية بصحبة أكثر من فتاة واحدة .

وبلغت مأساة «بيير» ذروتها سنة ١٩٥٩ عندما اقترح شاؤول افيجور ، وهو واحد من كبار مدراء المخابرات الإسرائيلية ، أن توكل إليه مهمة كتابة التاريخ لحرب ١٩٤٨ ، وبعد الموافقة على الاقتراح خصص

بيير مكتب بجوار مكتب بن جوريون فى وزارة الدفاع ، وسكرتيرة شقراء شهية ، وكان يتجول فى ردهات وزارة الدفاع ليس بهدف كتابة التاريخ وإنما لجمع المعلومات .

كان الرجل يعيش حياته بطريقته الخاصة وكان بيته القائم على ضفة اليوكون رقم ٦٧ شارع برانديس أشبه بالملهى الليلى يعج بالسهرات الصاخبة ، وتسيل فيـــه أنهار من الخمر المعتقة وكانت فتيات بيير اليافعات باهظات الثمن ولم يكن يطيق أن يقع بصره على حسناء دون أن يتملكها وفى مجتمع كالمجتمع الإسرائيلى لم يكن لأى مغريات سطوة كسطوة النقود . لذلك سعى بيير إلى جمعها بأية وسيلة .

وعندما ألقى القبض عليه ، ضبطت فى مسكنه وثائق باللغة العبرية زاد وزنها على الثلاثين كيلو جرام ، واتضح أنه لم تكن فى النمسا ، فى التاريخ الذى ذكره ، أية أكاديمية عسكرية . وأن أول دورة عقدت فى أول أكاديمية فى فيينا ، وتدعى « ترزية » ، كانت تضم بين طلابها يهوديا واحدا يدعى برتيس إيزنشتات ، ولسوء الحظ اتضح أنه يخدم فى الجيش الإسرائيلى برتبة عقيد تحت اسم شلومو هيشبيت وأنه لم يتعرف على بيير فى الأكاديمية قط .

أما أكذوبة اشتراكه فى الحرب الأسبانية فكان ثمة شاهد عليها أيضا ، إذ قال يهودى يدعى زيجموند شتاين ، وهو رجل كان يخدم فى لواء دومبريسكى إبان هذه الحرب أنه يعرف « بيير » الذى كان ضابطا

فى لواء كالمان وهو من النمسا فعلا ولكنه ليس المقبوض عليه الآن ، لأن بيير الحقيقى ارتكب بعض المخالفات . وقبض عليه بواسطة الجنرال الروسى « جونز جروتويل » ومات .

وأدى الغموض الذى أحاط بشخصية بيير والاتقان الذى زرع به فى إسرائيل إلى رواج زعم بأنه كان ضابط مخابرات سوفيتى وشجعت الحكومة الإسرائيلية على انتشار هذه الشائعة وربط الإسرائيليون بين واقعة القبض على بيير وبين مغادرة أحد الدبلوماسيين السوفيت لإسرائيل على وجه السرعة ولكن البيان الرسمى الذى أصـــدره بن جوريون كشف عن حقيقة أن بيير كان عميلا يتجسس لحساب آخرين منذ الثانى عشر من مايو ١٩٦١ . قال بن جوريون « هناك أسباب قوية وراء القرار الذى أصدرته السلطات من أجل عدم نشر اسم الدول الأجنبية التى قام الكولونيل بيير بالتجسس لحسابها »

والحقيقة أن بيير لم يكن قد دخل إلى عالم الجاسوسية ، عندما رحل إلى فلسطين سنة ١٩٤٧ ولكنه أقرب الشبه إلى زميله أولريتش شنيفص، شابا ضاقت به الحياة فى أعقاب الحرب العالمية ووجد فرصته لكى يبدأ حياة جديدة فى أرض جديدة . بشرط أن ينتحل اليهودية وعندما قبض على بيير اكتشف الإسرائيليون أنه لم يكن مختتنا وهذه مسألة تستوقف النظر لاهميتها الفائقة .

فبينما كان أولريتش جاسوساً موهوبا كان بيير مغامراً قادرا على اختلاق الأكاذيب واجترارها بدقة . فعلى حين أجرى أولريتش عملية

الختان لنفسه نجد أن بيير لم يعط هذه المسألة ما تستحقه من الاهتمام . ولكى ندلل على أهميتها فإننا نعيد إلى الذاكرة أن جهاز المخابرات العامة المصرى حرص على أن يجرى عملية الختان الكيشورك يعقوبيان الذى كان أول جواسيس مصر فى إسرائيل . والذى وردت قصته فى كتابنا « المفاجأة » . كذلك استخدم الجاسوس الألمانى وولفجانج لوتز عملية الختان كطوق نجاة تعلق به هربا من المصير الذى كان ينتظره عندما سقط فى قبضة المصريين ، إذ أكد هويته الألمانية بأن هتف « إننى لست إسرائيليا ولست يهوديا وتستطيعون أن تتأكدوا من أننى لست مختتنا » .

لم يكن بيير إذن جاسوسا بطبيعته ، ولكنه تمكن من تأكيد ذاته فى إسرائيل ، وكان من المنطق فى مجتمع قام أساسا على أكذوبة ضخمة أن يلقى رجلا مسلحا بالأكاذيب ، وهكذا تفتحت أمامه الأبواب وحقق لنفسه منصبا مرموقا وذاعت شهرته ، وكان من السهل أن يظل « بيير » فى اتجاهه الصاعد لولا بعض التغييرات الطارئة التى تمثلت فى حرب سنة ١٩٥٦ والتى أدت إلى سطوع نجم ضابط آخر يشابه « بيير » فى صفات كثيرة ولكنه يضمر له العداء . ولم يكن ذلك الضابط سوى موشى دايان .

فمنذ أن انضوى الرجلان تحت علم الجيش الإسرائيلى والحقد يتصاعد فى نفس كل منهما على الآخر ، كان دايان ينفس على بيير مكانته فى قيادة الجيش ومعرفته العسكرية الواسعة ولكنه كان يكتم

مشاعره . خصوصا فى الفترة كان فيها بيير مقربا من الجـــنرال إيجال يادين .

وبانتهاء حرب سنة ١٩٥٦ وماصاحبها من تسليط الأضواء على دايان وجد الاخير نفسه فى موقف يسمح له بالاعلان عن أحقاده القديمة فى مواجهة خصمه القديم .

فعلى حين وصف بيير دايان بأنه « جاهل أفاق كل مؤهلاته رصاصة طائشة اقتلعت احدى عينيه مصادفة » كان دايان يصرح علنا أمام كبار الضباط بأن بيير قرأ كثيرا فى الشئون العسكرية ولكنه غير قادر على كسب المعارك . وفى اجتماع عسكرى عال على مستوى القيادة وصلت الأزمة بين الاثنين إلى ذروتها إذ طلب دايان من بيير ان يغادر قاعة الاجتماع . وبعد ذلك حاول ان يوغر صدر بن جوريون عليه .

وبالاضافة إلى الحقد على دايان كان هناك عامل جوهرى خطير أدى إلى التحول الحاد الذى طرأ على موقف بيير سنة ١٩٥٦ . وهو عامل خطير ذا أثر بالغ القوة فى لعبة التجسس يكاد ان يكون قاسما مشتركا فى كل مبارياتها وأعنى به النقود .

كان بيير دائم السفر كثير التجوال مولعا بالرحلات وكانت السفارة الإسرائيلية فى بون تتولى دفع كل نفقاته فى اوربا . وقد اتضح فيما بعد ان الجنرال حاييم لاسكوف ومعه رؤساء المخابرات الإسرائيلية

وبموافقة بن جوريون شخصياً كانوا يمدون رحـــلات بيير ويصرون على أن تحول له السفارة العطاء من الأموال المخصصة المهام السرية باعتبار أنه يمثل الجيش الإسرائيلى فى المنظمات العسكرية الأوروبية كما أنه يعبر عن النظريات السائدة فى القيادة العليا .

ويوجد بيير فى هذا النبع البعيد عن الأعين منهلا راح يعب منه ليروى نهمه المفرط الملذات ، وكانت سفراته المتصلة فى القارة الأوروبية حافلة بالمآدب الباذخة التى كان يقيمها فى أرقى الفنادق ليشبع حاجته الملحة إلى الانخراط فى الأوساط الارستقراطية وإلى الطعام الفاخر والخمر الجيدة والفتيات الباهرات الحسن ، وقد أحاط هذا الرجل الغريب نفسه بباقة ملونة زاهية من الحسناوات . وفجأة أوقف دايان سيل النقود .

وفى ذورة هذه المحنة كان بيير يغرق نفسه فى الخمر وقد ازداد نحوله وبدأ يعانى من اضطراب عصبى ولكنه لم يكن وحيداً فمن بين عشيقاته كانت فتاة واحدة تضمر له أرق العواطف الإنسانية ، وقد بكت من أجله وتضرعت إلى السماء أن تعاونه ، ولما وجدت أن السماء لم تستجب لها قررت أن تهب هى لنجدته ، ولست أعرف على وجه اليقين ما إذا كان الأسلوب الذى اتبعته لمساعدة عشيقها وليد أفكارها الخاصة أو جاء نتيجة لإيحاء بيير نفسه ، ولكن المؤكد أن هذا الأسلوب والأحداث التى تمخض عنها كان شيئاً فريداً .

كان ذلك فى يناير ١٩٥٧ عندما شاهد موظفة الاستعلامات فى السفارة المصرية فى عاصمة أوربية ، فتاة فائقة الجمال يعلو الاحمرار أرنبة أنفها ترتدى معطفا واقيا من المطر وقد ثبتت سيجارة فى طرف أصابعها ، والراجح أنها كانت مترددة إذ ظلت صامتة لثوان قليلة ثم هتفت بالفرنسية : أريد مقابلة مسئول ..

— هل لديك موعد ياسيدتى ؟

— موعد .. لا .. ولكن ثمة موضوع هام .

ولقد دللت « ديانا » — وهذا اسمها — بهذا الإجراء الجسور على أن روح المغامرة التى سيطرت على بيير منذ شبابه قد انتقلت إليها. وسرعان ما وجدت أمامها رجلا فارع الطول مطبق الفم ، ليقتادها إلى غرفة جانبية فى الطابق الأول ولاحظت « ديانا » أن نوافذ الغرفة مسدلة الستائر ، ولم تكد تفرغ من تأمل محتويات الغرفة التى لا تتعدى مكتباً رمادياً ومقعدين حتى فتح الباب ودخل شاب صلب البنيان يرتدى بلوفر من الكشمير فوق قميص مفتوح .

وليس لدى أدنى شك فى أن هذا الشاب قد تملكه الذهول عندما تعرف على شخصية ضيفته المرتبكة ، ففى قلب السفارة المصرية كانت عشيقة المستشار الخاص لابن جوريون ، تقدم عرضا سخيا غير مقرون بأية شروط ، وكان العرض موجزاً لخصته فى كلمات بسيطة ، أن تتعاون

بإخلاص مع المصريين ، كانت تتحدث بالفرنسية ولكى تؤكد مقاصدها دون غموض أعادت ترديد كلمة إخلاص باللغة الانجليزية .

كانت الكلمات تتدفق بحرارة من بين شفتيها ، وقد تمتم الشاب ببضع كلمات قليلة ، وفى المقعد المواجه له كانت تقبع فتاة لا يمكن للإنسان العادى أن يقاومها إلا بصعوبة ، نموذج دقيق للتكوين الأنثوى ، ومن فتحات معطفها كانت تبرز محاسنها ، ومع هذا الجمال كانت مثقفة ، ولأن الإخلاص يقابل عادة بالإخلاص صارح الشاب زائرته بأن الموضوع أخطر من أن يناقش بالمراسلات ووعدها بأن يطير بنفسه إلى القاهرة فى نفس اليوم ليرتب العملية بين رؤسائه ، وبصفة مبدئية اتفق معها على اللقاء فى الثامنة مساء يوم الأحد التالى فى محل لبيع الزهور ، وبعد فترة صمت قصيرة سأل الشاب السيدة عما إذا كانت ترغب فى أى معاونة عاجـــلة ولكن « ديانا » ابتسمت بامتنان ونهضت واقفة .

وفى القاهرة طرحت حكاية عشيقة بيير على مائدة البحث فى جهاز المخابرات العامة وكان الحضور ثلاثة من أخطر الرجال ، المدير نفسه ونائبه لشئون الجاسوسية ، ومساعده المختص بإسرائيل . وفى منتصف الليل انتقل المدير فى عربة صغيرة عادية إلى مقابلة غير عادية . وقبل أن يبزغ فجر تلك الليلة المرهقة استقر الرأى فى جهاز المخابرات على أن الحاجة إلى المال هى الدافع إلى تصرف ديانا بالإضافة إلى المناخ النفسى الذى وجدت فيه عشيقها بعد إجراءات « دايان » المتسمة بالرغبة فى

الإيذاء ، وبعد دراسة معقدة ومفصلة للحالة استبعد نهائياً احتمال أن تكون ديانا عميلة مدسوسة واعتبرت العملية نظيفة تماما . وفى نفس الوقت اتخذ قرار بالإغداق على المرأة لكى تتمكن من تقديم العون لعشيقها ، وكانت القاهرة تعرف أى عشيق هو .

كانت ديانا هبة من السماء عثر عليها المصريون ، وأعتقد انهم كانوا على استعداد لدفع أى مبلغ لكى يصلوا إلى شخص على مستوى بيهر . ولم يسبق فى التاريخ أن حظيت جاسوسة بمثل النظام المعقد الذى وضع بإحكام لكى تتسلم المخابرات المصرية ما تقدمه ديانا من معلومات دون أن تتمكن أية رقابة مهما كانت صرامتها من اكتشاف العلاقة بين المرأة ورؤسائها الجدد المخلصين .

فمن أجل هذه الجاسوسة النادرة استخدمت المخابرات المصرية أختين غير شقيقتين كبراهما فرنسية الأم ، أما الصغرى فمصرية خالصة . وكانت الأخت الكبرى تعمل فى مكتبة أوربية شهيرة لذلك اختصت بدور صندوق البريـــد ، وكانت ديانا تتخير الأوقات التى تخلو فيها المكتبة من الرواد ثم تدلف مسرعة لتنتقى كتابا كيفما اتفق ، وكان عليها أن تسلم ما لديها من معلومات أثناء دفع الثمن . وكان طبيعيا أن تزور الأخت الصغرى اختها عندما تزور أوربا . ولكى تتعدد زياراتها تدخل شخص ذو نفوذ وحصل لها على وظيفة فى شركة الطيران ، وهكذا انتظم نقل المعلومات بين مكتب بن جوريون والقاهرة ، أما النقود فكانت تتخذ نفس المسار باتجاه معاكس طبعا .

وكان حتما أن تثور بعض المخاوف فى بداية الأمر ، تلك المخاوف التى تقترن دائما بحجم النقود التى يجب دفعها لأى جاسوس ، فمن البديهى أن الجرعات غير المناسبة تؤدى إلى افتضاح الجاسوس إذا كانت أكثر مما يجب . أما إذا كانت أقل مما يجب ، فإنها السبب فى فقدان الجاسوس للحماس ، وقد يفكر فى عرض بضاعته على مشتر أكثر ثراء ، وقد ينقلب إلى عميل مزدوج يبيع لاثنين من المشترين بدلا من مشتر واحد ، وهذه كلها معوقات لا يسمح جهاز المخابرات المتقدم بأن تنبت فى طريقه .

كانت « ديانا » محقة فى طلب أى مبلغ من النقود مهما بلغت ضخامته ، وكانت معلوماتها أثمن من أن تقدر بمال ، وفى نفس الوقت كان « ديان » يرقب من بعيد وهو يتوقع أن ... ل بحصمه الضائقة بعد منع الأموال السرية عنه ، ولعلاج تلك المشكلة التى تبدو مستحيلة الحل ، لجأ المصريون إلى حيلة ذكية وطلبوا من ديانا أن توعز إلى بيير باعادة طبع كتابه «الشرق الأوسط بين الشرق والغرب» ليشتروا كل نسخه من الأسواق ، وكان هذا هو سر الرواج الذى لاقاه ذلك الكتاب ، وقد بدا وقتئذ وكأنه ضربة من ضربات الحظ

وفى المقابل أمدت ديانا المخابرات المصرية بأربعمائة وثيقة تضمنت إحداها تنظيم وزارة الدفاع الإسرائيلية ، وكذلك اشتملت وثيقة أخرى على خطة تسليح الجيش الاسرائيلى ، بالإضافة إلى بيانات

وافية لأعداد الألوية المدرعة ، والوحدات الملحقة عليها ، ومخزون الذخائر والخطط الخاصة بتنظيم التعاون بين القوات البرية والجوية وقوائم مفصلة بأسماء كبار الضباط والقـــادة وأسماء معاونيهم مع عناوين مساكنهم .

ومع هذا السيل المنهمر من المعلومات كانت القاهرة تطلع أولا بأول على محاضر اجتماعات القيادة العليا الاسرائيلية وتكونت لديها صورة واضحة لكل إجراءات الأمن المتبعة هناك ، فقد كان الدكتور بيير مستشار الأمن فى الحكومة ، وفى سنة ١٩٦٠ كانت كل نطاقات الأمن المفروضة على حدود اسرائيل وقطاع غزة معروفة للقيادة المصرية ، وأسهمت هذه المعرفة إسهاما عظيما فى ازدياد نشاط وفاعلية الكوماندوز المصريين وتوسيع رقعـــة عملياتهم داخل إسرائيل .

ولم تكن المعلومات هى محصلة جهود ديانا النشيطة وحدها ولكن عملها امتد إلى مجال آخر لا يقل خطراً ، إذ كان عليها أن توحى إلى عشيقها بالأفكار التى كانت القاهرة تدسها عليه ، وفى الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٠ أثبتت الفتاة الجميلة أنها كانت بارعة فى هذا المضمار بقدر ما كانت بارعة فى التجسس ، إذ كتب الدكتور اسرائيل بيير مقالا فى ها آرتس بعنوان «سياسة وسياسة مضادة فى الصراع

مع الجمهورية العربية المتحدة » ومع أنه هاجم فى المقال عبدالناصر ووصفه بأنه دكتاتور طموح ومغامر إلا أنه ذكر بالحرف الواحد أن هناك فارقا كبيرا بين عبدالناصر وهتلر ، واذ أن عبد الناصر خرج من صفوف الشعب » .

وفى بقية مقالاته التى دبجها بعد ذلك ، اتخذ خطا أقل تصلبا حيال الوجود الإسرائيلى نفسه ، وظهرت بوادر تدل على أنه يتبنى فكرة قيام دولة علمانية تضم اليهود والفلسطينيين، وتحدث عن الحالة المؤسفة التى يعيش فيها اللاجئون، وعارض بعنف اتجاه إسرائيل إلى سياسة القمع والارهاب، وسخر بشدة من سيطرة المؤسسة العسكرية. وكانت « ديانا » هى المحرك الأساسى وراء ذلك التحول الحاد كله .

ومع رجل مثل إسرائيل بيير لم تكن الأمور لتمضى دون حدوث ما يعكر الصفو ، فقد أدى إفراطه فى الشراب والملذات إلى إصابته بنوع من النوبات العصبية الحادة ، كذلك كان يقاسى فيما يبدو من مرض « باركنسون » وكان لهذه الحالة الصحية التعسة أثر جسيم على تقديره واتزانه ، ولأن ديانا كانت أقرب الناس إليه ، تحملت الفتاة عبئاً كبيراً وعانت وهى تشعر فى أعماقها بالرثاء من أجله ، وعندما كاد صبرها أن ينفد أفضت إلى المخـــابرات المصرية برغبتها فى مفارقته .

كان ذلك قبل النهاية بثلاثة أشهر وكان بيير قد استعاد علاقاته القديمة بأورا ودعاها لكى تقيم معه ، ولكن المصريين نصحوا ديانا

بأن ترق إلى جوار عشيقها ، وكانت وثائق بيير قد أخذت فى التسرب من مبنى وزارة الدفاع إلى غرفة مكتبه فى البيت ، ومن المؤكد أنه كان قد اتخذ قرارا بأن يقدم كل وثائق الحكومة الإسرائيلية للجهة التى كان يعمل لحسابها ، وكان واجب ديانا أن تحصل هى الأخرى على صورة لهذه الوثائق وقد وعدها المصريون بمبلغ هائل من المال .

والمؤسف أن الحوادث تتابعت بعد ذلك بشكل يثير الحزن فى النفس ، إذ قبض على بيير ذات ليلة واقتيد إلى التحقيق ، وأسفر تفتيش بيته عن أدلة لا يستطيع إنكارها أحد ، ثلاثين كيلو جرام من الوثائق البالغة السرية ، ومبلغ لا بأس به من الدولارات .

إن المرء لا يملك ألا أن يرثى لذلك الجاسوس ، وأغلب الظن أنه حمل بضاعته الثمينة دون أن يتأكد من خلو الطريق ، فمن المؤكد أن وزارة الدفاع قد اكتشفت ضياع وثائقها بالإضافة إلى أن بيت بيير لم يكن بالمكان المناسب لحفظ الأسرار .

ومما يثير الدهشة أن المخابرات الاسرائيلية لم توجه أدنى اهتمام لتقصى حقيقة المخالطين للجاسوس الخطير ، والغريب أن ديانا وجدت الجرأة لكى تحتفظ بعدد ضخم من الأفلام وبعض الوثائق ، مدة عشرة أيام بعد القبض على عشيقها ، وبعد أن تمكنت من تهريب هذه اللعب الخطرة ، بقيت فى اسرائيل تلهث وراءه من سجن إلى سجن ورفضت رفضاً قاطعاً أن تغادر اسرائيل بينما رجلها فى مأزق ومازالت ترتدى السواد حدادا عليه حتى الآن .

وعندما عرض بيير على قاضية الصلح الشمطاء «ليثيا عوجن» أصر على إنكار كل شيء وعاد إلى اختلاق الأكاذيب ليبرر احتفاظه بالوثائق وزعم أن الأموال التي ضبطت في حوزته كانت وديعة من صديق ألماني ذي شأن عظيم ، وكان الرجل الذي عاش حياة زاخرة وعريضة يقف في وجه أسوأ اتهام يمكن أن يوجه للانسان . وبين الجو احتشدت لتشهد أغرب فضيحة تجسس كانت امرأة جميلة ذات ملامح جذابة تنشج بحرارة، وفي نهاية الجلسة أمرت القاضية بعد توقيفه وطأطأ هو لأول مرة رأسه . وفيما كان خارجا بين حارسيه ، مد يده ولمس ذراع المرأة التي غمست بدموعها . وعرفت الجموع أنها ديانا ذهابي ، العشيقة التي حافظت على إخلاصها له رغم كل شيء .

وتسلح بيير بنفس الأكاذيب أمام المحكمة الابتدائية ، وكان هجوم ممثل الادعاء مريرا ورغم الدفاع المستميت الذي قدمه محاميه بهلر إلا أنه لم يجد أي رد على الشهود الذين توالوا في قاعة المحكمة وتكشفت حقيقة بيير بسرعة ، ليس كجاسوس فحسب ولكن كأفاق خدع دولة بأكملها .

وصدر الحكم بسجنه عشر سنوات وقدم محاميه استئنافا أمام المحكمة العليا في الواحد والعشرين من يناير سنة ١٩٦٢ رغم معارضة بيير الذي أدرك بجلاء أن نهايته غدت وشيكة ، وفي الفترة التي انقضت بين القبض عليه ونظر الاستئناف كانت ديانا تزور محبسه كل يوم متشحة بالسواد ودموعها تبلل خديها بلا توقف . وتأثر الرجل الفولاذي



د إسرائيل بيير بعد القبض عليه

وبدأ عناده فى الذوبان فاعترف بأنه لم يذهب إلى أسبانيا فى حياته ثم اعترف بأنه لم يلتحق بأية أكاديمية . وفى خاتمة المطاف اعترف بالتجسس وأصدرت المحكمة العليا حكمها بزيادة العقوبة إلى خمس عشرة سنة ..

وعرف فيما بعد أن اسرائيل بيير نقل إلى سجن « شطا » وهناك اختفى نهائياً عن العالم ، وبذلت ديانا جهودا خارقة لكى يسمحوا لها بزيارته ، ولكن جهودها ضاعت هباء ، وفى اليوم الثانى من مايو سنة ١٩٦٢ أصدر الإسرائيليون بيانا رسميا بوفاة إسرائيل بيير . وهكذا أسدل الستار على أفظع عملية تجسس فى إسرائيل . وسوف يبقى إلى الأبد سؤال واحـــد لا يعرف مخلوق إجابته . هو : لماذا غامر هذا الجاسوس الموهوب بنقل ثلاثين كيلو جرام من الوثائق إلى بيته ؟ !



عين فى النقب الجنوبى

الكسندر بولين

لم يكن عظيما كهؤلاء الذين سبقوه ، ولم يترك فى عالم الجاسوسية خطا بارزا يستحق به أن يخلد ، ولكنه كان جرس تحذير رهيب للمخابرات الإسرائيلية ، هاجم كل النظريات التى كانت سائدة قبله فى مكاتبها ، وجعلهم يعيدون تقدير موقفهم بعد أن أفاقوا من الدهشة ، وإن بقيت دعاواهم الزائفة عن حائط الأمن تتردد بشكل على كنوع من الدعاية فى بعض الأحيان ، وكإغراق فى أحــــلام اليقظة أحياناً وكثيرة .

فعندما اكتشف مورد خاى كيدار ، قال الإسرائيليون ، لقد سقط فى قبضة أعدائنا وهناك غسلوا مخه ، أما أولريتش شنيفت فلم يكن إسرائيليا ، وبيير . . إنه معتوه تمكن من خداعنا ولكنه ليس واحدا منا ، وفجأة سلطت الأضواء على الكسندر بولين ، الذى لم يكن إسرائيليا فحسب ولم يكن يهوديا فقط ، ولكنه كان ضابطا له تاريخ حافل فى حروب إسرائيل ، وكان أيضا موجها سياسيا فى وحدة البالماخ التى انتمى إليها . ولعل صفاته هـــذه هى السبب فى أن الإسرائيليين

لاذوا بالصمت فترة طويلة. فقد كان مختلفا تمام الاختلاف، هادىء الطبع رقيق الحاشية. لا يدخن ولا يقرب الخمر، شديد النفور من الحسناوات، ربما لأنه يهودى متعصب يؤمن بدينه، فرغم أنه كان شابا فى العقد الثالث من عمره، إلا أنه كان دائم التردد على المعابد. وقد زار حائط المبكى مرات عديدة، وهناك كانت تمنعه رجولته الصلبة وتاريخه العسكرى المشرف والعريض من أن يذرف الدموع، ولكنه كان يشعر بخشوع طاغ أمام أى شىء يرتبط بالسماء حتى لو كان زائفا.

ولقــــد اشتهر الكسندر فى أوساط الجيش الإسرائيلى باسم «بوليتراك» وهى كلمة مشتقة من طبيعة عمله، فى قطاع التوعية السياسية، ومن الحقائق الثابتة فى وثائق الجيش أنه كان ضابطا مثقفا ذا مقدرة هائلة على التأثير فى نفوس سامعيه، وكانت ندواته تحوز رضا القادة، وكثيرا ما حضر بن جوريون وإيجال آلون، كمستمعين فى المحاضرات التى كان ينظمها للضباط، والتقطت له صور تذكارية مع أغلب الرؤساء فى إسرائيل. ولو أن أحد المخالطين لألكسندر سئل عن مثله الأعلى لكان ذلك الرجل بالتأكيد، فمن أول رئيس الحكومة حتى عامل النظافة فى الحى الجديد من مدينة بئر سبع القديمة، كان الكل يكن الإعجاب لذلك الضابط الجاد المهذب، الذى يتدفق بالحماس. ولم يكن أحد يتصور بالطبع أنه ليس سوى جاسوس داهية من جواسيس القاهرة.

كان مقيما فى بئر سبع، وكان بيته الأنيق المكون من طابق واحد يطل على الطريق المؤدى إلى ميناء إيلات فى أقصى الجنوب، ولدرايته

بالأمور العسكرية كان رقيبا راثما و يقظا وعينا مفتوحة على الباب الشمالى لصحراء النقب ، وأصبح جديراً باللقب الذى اطلقه عليه جهاز المخابرات العامة المصرى : عين النقب ، والمذهل أن هذا اللقب نفسه استخدم كوسيلة للتعارف بين الكسندر وبين بعض الرسل الذين أوفدوا اليه من القاهرة إبان فترة نشاطه .

بدأت القصة فى شتاء سنة ١٩٥٥ ، وكان الكسندر قدقام بجولة فى القارة الاوروبية بقصد السياحة ، وانتهى به المطاف فى مدينة زيوريخ . وهناك وسط طبيعة قاسية ولكنها محببة عكف على القراءة فى فندق بسيط يشرف على الطرف الشمالى المدينة ، واتخذ لنفسه نظاما دقيقا فكان يصحو فى الصباح الباكر ، ويتناول إفطاره فى غرفته ثم يهبط إلى البهو ويلقى تحية الصباح إلى صاحبة الفندق ، وعلى الدرج الامامى يقف لحظة ويملأ رئتيه بالهواء ، وفى النهاية يحرك عصاه ايذانا ببدء جولة على الاقدام كانت تستغرق ساعتين بالضبط .

كان النزلاء قلة ، وكانت معظم الغرف خالية ، وكان الكسندر يثير الفضول وهو عائد قبل الظهر ليحتسى قهوته فى البهو ، وبعد أن يفرغ من القهوة كان يخرج كتابا من جيب معطفه ثم ينهمك فى القراءة ، ولم يكن يرفع رأسه عن الكتاب إلا فى وقت الغداء ، وكان يتخير مكانا بعيدا عن طرف المائدة ويبتلع طعامه دون أن يرفع عينيه عن طبقه ، وفى المساء كان الرجل يجلس إلى جوار المدفأة وكتابه يخفى وجهه. وفى بعض الأحيان كان يطلب كوبا من الشاى ، ولم يكن يغادر مكانه إلا ليتناول

عشاءه ، ثم يمضى السهرة فى البهو ، وعندما يصعد إلى غرفته كان يترك النور مضاء حتى ساعة متأخرة من الليل .

كان سلوكه عاديا لاغبار عليه ، ولكنه قدم على تصرف يتسم بالغرابة ، فذات ليلة عاصفة من ليالى يناير ، فوجئت صاحبة الفندق بالكسندر مرتديا معطفه وقد رفع ياقته حول أسفل وجهه ، وكانت الأرملة السويسرية الطيبة تعد طعام العشاء لنزلائها عندما مر بها فى طريقه إلى الطابق الأول ؛ ولم تخف دهشتها لأن هذا النزيل الغريب يغادر الفندق فى طقس غير ملائم . وعندما جلست إلى المائدة هتفت : انى اشفق على مسيو بولين . فقد خرج دون أن يحدد وجهته. وماأن فرغت من طعامها حتى بدأت الأمطار فى التدفق كالسيل .

وفى الصباح شوهد الكسندر على مائدة الإفطار وكان وجهه شاحبا واكتفى بقطعة من الكعك وقدحا من القهوة ثم هبط إلى البهو . وقبل أن يبدأ جولته اليومية اتجه إلى التليفون وبعد أن رفع السماعة تلفت حوله بهدوء ثم وضعها فى مكانها . وكان جليا أنه يفكر فى الاتصال بإنسان ما ، ثم تراجع . واخيرا لوح بعصاه ومضى إلى الطريق .

وفى اليوم التالى اتصلت امرأة بالفندق مستفسرة عن الكسندر وكان هو فى غرفته ولم تدم المحادثة اكثر من ثوان قليلة لم ينطق خلالها الا بكلمتى نعم ولا . ولم يكن يتحدث الفرنسية . وبعد ربع ساعة طلب عربة تاكسي بالتليفون وعندما هبط الدرج كان يرتدى معطفه وقد دس

إحدى يديه فى جيبه . أما اليد الأخرى فكانت تقبض على حقيبة كتبه . ويبدو أنه كان فى عجلة من أمره .

قضى الضابط الشاب أسبوعا بعد ذلك على نفس النهج المعتاد .. ولكنه كان مكتئبا . ولاحظ النزلاء أنه أصبح أقل شهية للطعام . كما أنه يلازم غرفته وقتا طويلا . وفجأة اتصلت امرأة بالفندق مستفسرة عنه . وبعد أن تبادل معها حديثا مقتضبا . أسرع إلى الخارج وهو بادى المرح . الأمر الذى أكد للجميع أن فى حياته قصة حب عميقة لا يود أن يفصح عنها لأحد . وتأكدت الظنون عندما عاد بعد ساعة وهو يصفر بفمه أغنية روسية دارجة . ولاحظت صاحبة الفندق أن العربة التى أقلته لم تتوقف بعد أن هبط منها . مما دفعها إلى الاعتقاد بأنه لم يعد فى عربة تاكسى .

وطوال الأيام الأربعة التالية كان الكسندر يبدو فى أوج مرحه فكان يكثر من الحديث إلى النزلاء ،وشوهد وهو يتبادل حديثا ضاحكا مع مضيفته . ولكن الأمور تبدلت بشدة بعد أن قام بإحدى جولاته الغامضة ذات مساء . إذ عاد إلى اكتئابه واكتست ملامحه بقناع من الوجوم، وقد قضى يوما بأكمله متقوقعا فى غرفته ورفض أن يتناول شيئا من الطعام . وعندما سألته صاحبة الفنـــدق عما إذا كان فى حاجة إلى طبيب تمتم ببضع كلمات وأشاح بوجهه بعيدا وهو بادى الحزن .

وتوجت تلك الفترة الشديدة الغموض من حياة ألكسندر بزيارة غامضة أخرى ولكنه لم يقم بها هذه المرة ، إذ وفد إلى الفندق زائر غريب ذو ملامح مبهمة وقامة متينة يضع على عينيه نظارة قاتمة السواد ، وكان ألكسندر قابعا فى البهو وفى يده كتابه المعتاد ، ويبدو أنه كان يترقب وصول إنسان ما ، فبمجرد أن دلف الغريب من باب الفندق هب هو واقفاً ، وبعد أن تصافحا صحب ضيفه إلى غرفته وهناك قضيا ساعة كاملة هبطا بعدها إلى البهو . كان ألكسندر يتحدث بصوت عال وهو يلاحق خطوات ضيفه ، وعند الدرج ودعه بحرارة ثم عاد إلى التليفون ، وطلب تذكرة طائرة إلى أثينا .

وفى أثينا اختفى ألكسندر بولين بصفة مؤقتة من الوجود ، إذ نزل فى أحد الفنادق باسم بيترفريتز ، وبعد أسبوع قضاه فى حالة بطالة كاملة تقدم بجواز سفر جديد إلى شركة الطيران المصرية وحجز مقعدا إلى القاهرة . وعندما وصل بيتر فريتز إلى مطار القاهرة وجد فى انتظاره اثنين من الرجال وعربة سوداء . وفى تلك الليلة كانت غرفة عالية فى مبنى المخابرات العامة المصرية ترسل ضوءا من وراء ستار النوافذ المسدلة ، وليس بامكان أحد أن يتنبأ بالحديث الذى دار داخل جدران هذه الغرفة بين ضابط الجيش الإسرائيلى ومدير جهاز المخابرات العامة المصرية نفسه ، ولكن المؤكد أن ألكسندر بولين قد أصبح أشد إخلاصاً لعمله الجديد من وطنه الذى حارب من أجله : اسرائيل .

ولقد عُرف فيما بعد أن ألكسندر بعد أن قاسى الحرب وويلاتها

وبعد أن شاهد زملاءه وهم يتساقطون فى الميدان واحدا بعد الآخر ، انتابته حالة من السخط العام . وكان سخطه راجعاً إلى ما تمخضت عنه حروب اسرائيل من نتائج ، فقد أقيمت الدولة وأصبحت لها حكومة. ولكن طبقة من الأدعياء والمزورين والانتهازيين استغلت هؤلاء الذين قتلوا وقفزت إلى قمة السلطة ، وكان هو صادقا عندما قال « لقد كرهت الحرب ، إنها عملية تجارية بحتة ، لقد باعوا دماء الشباب اليهودى لصالح تجار المفرقعات والصلب » وعرف أيضا أن الكسندر لجأ إلى المخابرات السوفيتية وتمكن من الاتصال بأحد مندوبيها فى سويسرا ، وشرح له اقتناعه بضرورة إنهاء حالة الحرب بين إسرائيل وجاراتها ، وعرض أن يعمل فى خدمة السلام ، ولكن الضابط السوفيتى طبقا لرواية الكسندر نفسه « لم يكن متفقا معى حول مفهوم السلام الذى يعنيه كل واحد منا . . وانتهت الجلسة دون اتفاق » وكان هذا هو السر فى الاكتئاب الذى اعتراه عندما عاد إلى ذلك الفندق فى زيورخ ذات ليلة .

وإزاء تلك الخيبة التى منى بها ، مضى الكسندر خطوة أخرى ولكن فى الاتجاه المضاد، إذ اتصل بالمخابرات الأمريكية ، وكان الأمريكيون أكثر سخاء فى الشكليات وحدها ، فقد أوصلوه إلى فندقه باحدى عرباتهم ووعدوه ببحث المسألة والاتصال به فى أقرب فرصة ، ثم اتصلت به إحدى عميلاتهم وحددت له موعدا عاجلا ، وفى هذا الموعد صدم الكسندر صدمة رهيبة لأن الأمريكيين أيضا أبلغوه بأن لديهم كل ما يريدونه عن إسرائيل ، وفى وقت لاحق قال الكسندر « لقد

كانوا مهذبين معى إلى أقصى حد ، وكان رجلهم الذى تحدثت معه رقيقا إلى أقصى حد ، ولكنى قاومت إحساسا خفيا بأنه يود أن يقول لى اذهب إلى الجحيم .

ولم يبق امام موجه البالماخ السياسى سوى أعدائه الذين حاربهم من قبل ، ولست أعرف كيف اتصلوا به، والأرجح أن ألكسندر كان تحت رقابة فراز استغل حالته المعنوية ثم رشحه للعمل ، ولكن الحياة اكتست لونا مشرقا مع المصريين فقد استمع مندوبهم إليه ، ثم سأله باقتضاب : هل معك ما يكفى من النقود ، وأجاب الكسندر بأنه لم يفكر فى مسألة النقود هذه بصفة جدية ، ولكن الضابط المصرى أخبره أنه سوف يقوم برحلة تغطية إلى أثينا ، وأنه سوف يدفع له كل النفقات . وبالفعل أرسل إليـــه الزائر الغامض الذى سلمه جواز سفر باسم بيترفريتز ورزمة من أوراق النقد الجديدة وأمرا مختصرا بالإقلاع إلى أثينا .

كان المصريون على عاداتهم حذرين لا يرفعون حواجز الكلفة بينهم وبين الغرباء بسرعة ، فى أصواتهم نبرة ورثوها عن الأجداد ، ولكنهم رغم كل شىء بسطاء يتميزون بالذكاء ، لا ينتظرون من من الطرف الآخر أن يريق ماء وجهه ، وفى نفس الوقت كانوا ملهوفين يترقبون رجلا مثل الكسندر لكى ينفذوا من خلاله إلى قلب عدوهم . وكان من الضرورى أن يحملوا الكسندر إلى القاهرة ، لكى يفرغ ما فى جعبته من معلومات هامة وليتلق أوامره من الرؤساء

مباشرة ، وفى مبنى المخابرات العامة فى القاهرة تأكدت حقيقة الكسندر منذ أول وهلة ، كرجل ساخط على قيادته السياسية ، معاد للحروب ، وقد عرضت عليه مجموعة هائلة من الأفلام والصور وشاهد عرضا « بالبروجكتور » لبعض فرق الجيش الإسرائيلى . وقيل له ، أن لدينا كما ضخما من المعلومات عنكم . ولكننا نرغب فى اقامة شبكة من أنصار السلام هناك ، ولعلكم تنجحون فى تجنيب شعبكم ويلات الحرب .

وعلى سبيل الترحيب والمودة ، دعى الضابط الإسرائيلى الشاب إلى الإفطار مع مجموعة من ضباط المخابرات الشبان ، وكان يجلس إلى صدر المائدة أحد الضباط الكبار ، وأثناء تناول الشاى قال ضابط كان يحتل المقعد المجاور لالكسندر وهو يملأ له قدحه، لقد حاربنا كم مرة ، كم قتلنا منكم ، وكم سوف نقتل فى المرات القادمة ، وإلى متى ستتحملون؟ لقد عانيتم من الاضطهاد والتشرد والإذلال ، ولكنكم أخطأتم الطريق لانكم سوف تواجهون ما هو أسوأ من ذلك كله ، إن جيشنا يقوى مخالبه بعد كل جولة ، ومخابراتنا أقوى من أن يقاومها أحد .

ولم يكن من اللائق أن يأتى الكسندر إلى القاهرة دون أن يطوف بمعالمها السياحية ، لذلك صاحبه أحد الضباط فى جولة زار خلالها متحف الآثار وقلعة صلاح الدين ، وفى النهاية وقف خاشعا أمام أهرامات الجيزة الشامخة ، وهناك قال بصوت هامس ، وأعتقد أن لهذا البناء الفريد حكمة واحدة، لقد أراد أجدادكم أن يقيموا لكم نصباً خالداً

يذكركم كلما أظلم الأفق من حولكم ، بأنكم كنتم سادة هذا العالم ذات يوم »

ومع المآدب والجولات الترفيهية وكل علامات الود تلقى الكسندر تدريباً جيداً وتسلم جهازاً دقيقاً للاتصال اللاسلكى وكاميرا صغيرة لتصوير الوثائق ، ووسائل الكتابة السرية ، وقيل له بوضوح أن المعلومات ليست هدفنا بالدرجة الأولى ، لأننا نريد المعلومات لكى نحول دون نشوب الحرب، وعليك أن تحافظ على سلامتك ونأمل أن يتزايد عدد أمثالك فى جيش اسرائيل لكى يصبح فى مقدورنا أن نناقش الأمور بهدوء وبغير تعصب أو انفعال . وهكذا كان الكسندر بولين هو أول ضابط اسرائيلى محارب يسعى بنفسه وباقتناع لعقد اتفاق سلام مع المصريين .

وبعد أربعة أسابيع فى القاهرة ، غادر بيتر فريتز بجواز سفره الجديد مطار القاهرة متجها إلى أثينا ، وهناك فى العاصمة اليونانية القديمة عاد الكسندر بولين إلى الظهور مرة أخرى، واختفى بيتر نهائياً. ومن أثينا ، رحل الكسندر إلى اسرائيل ، وعندما وصل إلى بيته فى بئر سبع ، أرسل أول برقية لاسلكية إلى رؤسائه الجدد ، وبعد هذه البرقية أصبح لجهاز المخابرات العامة المصرى جاسوس على دراية واسعة بالشئون والمعدات العسكرية فى صحراء النقب الجنوبية .

وكانت فائدة « عين النقب » ترجع إلى وجوده فى مفترق الطرق بين اسرائيل وسيناء ، وكانت كل التحركات العسكرية الاسرائيلية فى

اتجاه ايلات تصل إلى القاهرة قبل أن تصل الوحـــدات العسكرية نفسها إلى ذلك الميناء ، وكان الكسندر مخلصاً ومتحمسا ، وباستثناء دفعة النقود التى تسلمها فى زيوريخ لم تدفع القاهرة بنسا واحداً ثمناً لمعلوماته ، فقد كان يتحرك بدافع مبادئه .

ونجح الكسندر فى نشر دعوى السلام بين رفاقه ، وأعتقد أن الشبكة التى ضبطت مؤخرا فى كيبوتز جان شموئيل والتى كان يتزعمها أربعة من ضباط المظلات الاسرائيليين بتهمة التجسس لحساب القاهرة ليست سوى محصلة تيار دعاوى السلام الذى بدأ يتدفق بمساعدة الكسندر بولين ، ولكنه أخطأ خطأ فادحا عندما حاول اقناع عريف اسرائيلى يدعى « شالوم » بالعمل معه ، والمؤسف أن شالوم معناها سلام - وكان شالوم هذا أحد أفراد المخابرات الاسرائيلية فى بئر سبع .

ويبدو أن المخابرات الاسرائيلية قد تشممت رائحة غريبة عندما أبلغها شالوم بالحديث الذى دار بينه وبين الكسندر لأنها أمرت عميلها بأن يقترب لمسافة أكثر من الضابط المتحمس . وأرسل الكسندر برقية إلى القاهرة ينبئها بأنه نجح فى تجنيد « عريف » فى الجيش الاسرائيلى يعمل فى سلاح الإشارة ، ودهش المصريون بشدة لهذه البرقية لأنهم لم يكلفوه بتجنيد أحد لحسابهم ، ولا شك أن هناك فارقا كبيراً بين إقامة شبكة من أنصار السلام وبين تجنيد الجواسيس .

وأبرقت القاهرة إلى عميلها تطلب منه أن يتخلص بسرعة من هذا

الشخص ، ولكن الكسندر كان واثقاً بنفسه فرد بأنه يثق تماما فى شالوم وأنه سوف يحصل عن طريقه على كل الاتصالات العسكرية الاسرائيلية فى النقب ، والأسوأ من ذلك كله أنه صارحه بأنه يعمل لحساب القاهرة ، وأن شالوم وافق هو الآخر على القيام بالتجسس .

وأسرعت المخابرات العامة المصرية بإيفاد أحد عملائها إلى بئر سبع متخفيا تحت ثوب تاجر دراجات فرنسى . وفى بيت الكسندر اتخذ الحديث مساراً ملتهبا ، إذ راح الكسندر ينفى شكوك المخابرات العامة المصرية التى لا تستند إلى أساس ، وكان واضحا أن العريف الذكى قد تمكن من كسب ثقته .

وفى النهاية سأل تاجر الدراجات مضيفه سـؤالا طلب إجابة صريحة عليه ، وهو : ألم تلاحظ عربة الكشف اللاسلكية بالقرب من منزلك؟ ولكن الكسندر الذى اعتراه الارتباك لحظة أجاب بأنه شاهد عربة يبدو أنها مخصصة لهذا النوع من العمل تطوف بالقرب من البيت ، ثم هز كتفيه باستهتار وهتف : انهم يتجولون ليل نهار فى كل شارع ولكنهم لا يقصدون هدفا معينا ، مجرد إجراء روتينى .

وأمام هذا الإصرار طلبت القاهرة من الكسندر أن يكف عن مباشرة نشاطه إلى أن تصله أوامر جديدة . وانقضت ثلاثة أشهر من الهدوء . ثم عاود الكسندر الدق على جهاز الإرسال مستعلما عن الاوامر الجديدة ، وقيل له ببساطة أن هذه الاوامر سوف تصله فى الوقت

المناسب ورغم ذلك انتهز فرصة فتح الاتصال وراح يرسل المعلومات وبعد أن فرغ من مهمته قيل له بأدب أن يمتنع عن إجراء أى اتصال لاسلكى إلى أجل غير مسمى .

ويبدو أن الاسرائيليين أدركوا ما يجرى حولهم ، لأنهم سلموا شالوم مجموعة من الوثائق ، أوامر عمليات ونماذج صرف مهمات وذخيرة وبعض نشرات التنقلات العسكرية ، وأسرع شالوم بالصيد الثمين إلى سيده الذى تناول الجرعة الخادعة بسعادة ، وعكف على تصويرها ، وأرسل الصور إلى العنوان الذى كان محدداً للتراسل مس اكسلى هورن — هل جيت — ١٠٠ — ، لندن ، ويترك الاسرائيليون الرسالة لتمضى فى طريقها المرسوم دون إعتراض .

ولكن قبل أن تصل هذه الرسالة إلى أيدى المصريين كانوا قد اسقطوا هذا العميل من حسابهم .

والمذهل أن الكسندر تمكن بعد ذلك من مغادرة إسرائيل، ورغم أنه أخطر القاهرة قبل سفره بموعد السفر وعنوان الفندق الذى قرر النزول فيه فى أثينا إلا أنه قضى عشرة أيام دون أن يتصل به أحد ، ولو أن هذا الرجل كان ذكياً ، لاكتشف أن أحد عملاء المخابرات الاسرائيلية كان يتبعه كظله ، واتخذت اللعبة شكلا مضحكا فى شوارع أثينا إذ كان الكسندر يتحرك كقطة مغمضة العينين ووراءه عميل المخابرات الاسرائيلية يحصى عليه حركاته وسكناته ، ووراء الاثنين أحد عملاء المخابرات العامة المصرية يراقب الاثنين .

وذات صباح استيقظ الكسندر على رنين جرس التليفون وعندما رفع السماعة جاءه صوت يتحدث بالعبرية ، « السيد الكسندر ، ارتد ثيابك بسرعة واهبط إلى صالة الفندق وسوف تلتقطك عربة من أمام الباب » وتتابعت الحوادث بشكل رهيب بمجرد أن فرغ الكسندر من ارتداء ثيابه ، فقد دخل إلى الفندق اثنان من الرجال أشبه برجال البوليس واقترب أحدهما من موظفة الاستقبال مستفسرا عما إذا كانت لديها غرفة خالية ، بينما أخذ الآخر يفحص القاعة بعينيه ويده فى جيب بنطلونه ، وفى تلك اللحظة ظهر الكسندر على أول الدرج ، وانطلق مسرعا إلى الشارع وفى أعقابه اندفع رجل أصلع أشبه بكيس جلدى يترجرج بالشحم ومد أحد الغريبين قدمه بين ساقى الأصلع فانكفأ على وجهه وانزلق مسافة مترين وهو على هذا الوضع المشين ، ولم تمنعه كلمات السباب ولا سترته التى تمزقت من تحت إبطيه ، من النهوض بأقصى سرعة ليلحق بالطريد، ولكن الغريبين تشبثا به وأصرا على أن يقدما له أخلص آيات اعتذارهما، وعبر باب الفندق الزجاجى شاهد الأصلع ألكسندر وهو يقفز إلى عربة مرقت بسرعة أمام الباب وعندئذ رفع عقيرته بالاحتجاج ،

وفى العربة ـ وكانت صغيرة ألمانية الصنع ـ أبدى الكسندر ضيقه للطريقة التى اتبعت فى اختطافه، ولكن السائق كان شابا مهذبا فاكتفى بالابتسام ، وعند بوابة بيت عتيق مبنى بالأحجار وتقوم حوله بضعة أشجار باسقة ، توقف السائق المهذب وأشار إلى الكسندر أن يهبط



السكندر بولين : من الذى يتخيل من الجماهير التى اندس بينها على هذا المقهى فوق أرصفة تل أبيب أنه جاسوس للقاهرة

وما أن وطئت قدماه أرض الطريق حتى انطلقت العربة وهى تزمجر بوحشية ، وعلى الفور فتح أحد الأشخاص باب البيت ودعا الكسندر أن يدخل ، وكان الشخص الذى فتح الباب يبدو متجهما ، وكان هناك كلب ضخم إلى جوار ساقه ، وكان على الكسندر أن يدخل فى هدوء .

وفى الطابق الثانى من هذا البيت الغامض وجد الكسندر ثلاثة ضباط فى انتظاره وقد احتل أكبرهم مقعداً عريضاً بجوار النافذة ، ودارت مناقشة عاصفة بين العميل السيء الحظ وبين رؤسائه ، وقيل له أن رجلا كان يتتبعه كظله منذ أن سافر من اسرائيل ، وقيل له أن ذلك الرجل كان مندفعا فى أعقابه عندما غادر الفندق وأن « رجالنا » اضطروا إلى اللجوء إلى أسلوب خشن نوعا ما لكى يوقفوه ولكن الكسندر بقى على عناده .

وفى النهاية نهض أكبر الضباط من مقعده واقترب بشدة من الكسندر ثم وضع يده على كتفه وعندما تحدث إليه كان صوته مشحونا بمشاعر الغضب والشفقة والعطف مختلطة كلها بعضها ببعض وخيره بين أحد أمرين ، أما أن يسافر على الفور بجواز سفر مصرى أعد له مسبقا ، إلى القاهرة ، حيث يستطيع أن يحل ضيفا مدى الحياة على الشعب الذى قدم له خدماته . وإما أن يغادر البيت إلى حيث يشاء

بشرط أن ينسى وبصفة قاطعة كل صلة له بالمصريين، وأن يواجه قدره بالشجاعة التى أقدم بها على حماقاته .

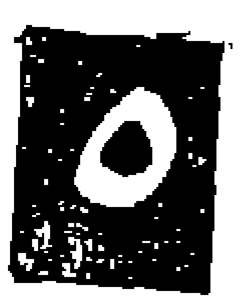
والمؤسف أن ضابط البالماخ المثقف ، اختار الاقتراح الثانى ، ورغم أنه حاول باستماتة أن يقنع محدثيه بعقم شكوكهم كما شرح بوضوح خططه المستقبل : الشبكات التى ينوى تشكيلها والمعلومات التى يأمل فى الحصول عليها ، إلى ما شابه ذلك من جهود طموحة ، إلا أن الضباط الثلاثة ظلوا صامتين ، وعندما هز أكبرهم رأسه علامة على الرفض الحازم انحنى الكسندر بأدب واستدار خارجا .

كان الكسندر حسن النية على ما يبدو لأنه غادر أثينا فى نفس اليوم عائدا إلى اسرائيل وبدلا من أن يتجه إلى بئر سبع ، اتجه شمالا من مطار اللد إلى تل أبيب، وكان الوقت قرب منتصف الليل والراجح أنه شعر بالجوع لأنه اتجه إلى شارع نيكس بعربة تاكسى ، وتوقف أمام مطعم جوندولا وما أن اقترب من الباب حتى أطبق عليه عملاء مكافحة التجسس الاسرائيليون واقتادوه أمامهم ، وفى تلك اللحظة فقط أدرك الكسندر دون أى لبس أن المصريين كانوا محقـــين فى شكوكهم .

وتعرض الرجل لاستجواب مرهق ودقيق لكى يدلى بكل تفاصيل الفترة التى عمل أثناءها فى خدمة « العدو » وقدم اعترافا كاملا ولكنه

رفض بإصرار أن يفصح عن وسائل اتصاله وأنكر تماماً وجود أية شفرة للتراسل ، وأثناء المحاكمة التى عقدت بصفة سرية ألقى موعظة بليغة على مسامع القضاء فاستنكر النظريات العنصرية الاسرائيلية ، وهاجم التفرقة بين طوائف اليهود ، وحمل بقسوة على الوجوه المتربعة فى قمة السلطة ، وأبى أن يدافع بحرف واحد عن نفسه .

ومرة أخرى صدر الحكم بإيداع أحد الجواسيس السجن ، ولأنه اسرائيلى ، لم ينشر النبأ فى الصحف بصفة مطلقة .



رجلنا الذى فى الشمال

مصطفى الجردلى

في مدينة عمان ، عاصمة الأردن ، وفى شارع السلط بالتحديد ، ثمة مطعم أنيق ذو واجهة زجاجية يدعى « جبرى » . ولأنه يتميز بالهدوء تصادف أن دخل إليه رجلان غريبان ، ذات يوم من أيام ديسمبر ١٩٦٨ ، لكى يتناولا طعام الغداء ، ورغم أنهما جاءا كل بمفرده إلا أنهما تخيرا مائدتين متجاورتين فى الطابق الثانى ، أعلى السلم مباشرة وأخذا فى تناول الحديث .

كان أحد الغريبين يبدو كتجار العاديات ، بملامحه التى تنم عن البساطة والذكاء ، وبسترته المصنوعة من الجلد الشامواه ، وحذائه المغطى بالأتربة ، أما الثانى فرجل قوى العضلات أشبه بالمصارعين أو محترفى رفع الأثقال ، وكان ينصت لزميله بينما عيناه تراقبان السلم ، فإذا ماصعد أحد الخدم بدأ حديثا مفاجئا على الفور ، فى موضوع يختلف تماما عن موضوع الحديث الأصلى .

وقد بدأ الأول حديثه وهو يضع شيئا من الزبد على قطعة خبز ساخنة :

— ثمة شخص يرغب فى التعاون معك .

— إننى أفضل العصير قبل الأكل ، ما اسمه ؟

— لاشك أنك تمزح ، لست أعرف اسمه ؟

— ولماذا لم يتعاون معك أنت ؟

— هذه مسألة خاصة به ، ما رأيك ؟

— فلسطينى ؟

— نعـــم .

— حسنا ، أود أن أطلع على اسمه وعنوانه وصورته أيضا .

وعندما أتم المصارع هذه العبارة ، اخرج تاجر العاديات مظروفا أصفر اللون من جيب سترته الداخلى ووضعه على المائدة ، وكان قد فرغ من التهام طعامه فسح يده فى المنشفة ثم نهض من مكانه وتوقف لحظة كما لو كان يود أن يقول شيئا ، ولكن المصارع مد يده وتناول المظروف ودسه فى جيبه ثم أخذ يتناول الطعام بهدوء ، لذلك هز تاجر العاديات رأسه وهبط السلم دون أن يلقى التحية إلى زميله ، بعد ربع ساعة ، هبط المصارع هو الآخر ، فى الطابق الأول تفحص عددا من صوانى الحلوى موضوعة إلى يمين الباب ، وبعد أن انتقى بعض الحلوى ، دفع حسابه وانصرف .

ولقد كان هذا الحديث الذى يبدو غريبا إلى حد ما ، بداية لقصة من أغـــرب القصص فى عالم الجاسوسية ، ومن المؤكد أن أبطالها لم يكونوا ليتوقعوا الحوادث المرهقة التى تمخض عنها حديثهم ، فقدكان تاجر العاديات واحدا من أخطر شخصيات جهاز مخابرات تابع لدولة شقيقة ، أما زميله فلم يكن سوى ضابط كبير من ضباط المخابرات العامة المصريين ، ورغم أن هذين الرجلين أصدقاء ، تربطهما علاقة وثيقة إلا أنهما لايتبادلان الحديث بحضور الغرباء مهما كانت الظروف .

كان ذلك اللقاء فى الثانى من ديسمبر ، وبعد أربعة أيام وافقت الحكومة الإسرائيلية على السماح لثلاثة من موظفى البنك العربى فى غزة بالسفر إلى عمان لإنهاء بعض الأعمال المالية مع فرع البنك فى الأردن ، وكان أحد هؤلاء الموظفين الثلاثة ويعمل مساعدا لرئيس قسم الاعتمادات المستندية هو موضوع الحديث الذى دار فى مطعم « جبرى » ولعل هذا هو السبب فى أنه عاد ذات يوم إلى بيته فى غزة ليجد أن زائرا ينتظره .

ــ لقد تحدثوا إلينا بشأنك . .

هكذا قدم الزائر نفسه وهو يفحص مضيفه بعينيه اللامعتين ، وقد أدرك موظف البنك على الفور ما الذى يعنيه ضيفه ، لذلك أغلق باب حجرة الاستقبال واقترب بشدة ثم أخذ يهمس ، وكان همسه طبيعيا فى مثل هذا الموقف ، فالمخابرات الإسرائيلية تراقب كل حركة . وجيش الاحتلال الاسرائيلى يملأ الطرقات ، وهناك أيضا

بعض الخونة ، لذلك عمد الزائر الغامض إلى الحديث مباشرة وبصوت خافت .

— إن ابنتك مريضة ، أنا أعرف ، اذهب بها إلى أى مستشفى بعيد عن غزة .

— ثمة مستشفى يدعى أساف هاروفيه ، قريب من الرملة .

— حسنا ، متى ستعود إلى عمان ؟

— بعد عشرة أيام .

— إنى أحتاج ثلاثة أيام فقط .

رفع موظف البنك حاجبيه بدهشة ولكنه ظل صامتا ، أما الزائر فنهض من مكانه وألقى نظرة من وراء النافذة على الطريق ، ثم استطرد :

— خلال يومين ستتمكن من إرسال ابنتك إلى المستشفى ، بعد ذلك انقل أسرتك إلى أى فندق قريب فى الرملة ، وسوف أعود بعد أربعة أيام بالضبط وأرجو أن تكون وحدك .

وتحول بيت موظف البنك إلى مدرسة من نوع نادر ، وطوال أيام التدريب لم يكن مظهر البيت يدل على أنه مسكون ، ففى أول يوم جلب موظف البنك بتعليمات من ضيفه الغريب ، كمية من الطعام تكفى رجلين لمدة ثلاثة أيام ، وأغلقت النوافذ بإحكام . وكان اليوم الأول مخصصا لدروس التصوير والكتابة السرية ، وفى اليوم الثانى دروس الإرسال

والاستقبال بأجهزة اللاسلكي ، وخصص اليوم الثالث لدروس تهدف لتنمية بعض المهارات الخاصة ، وفي النهاية هتف ذلك الزائر الغامض وهو يستعد للرحيل :

— إننا لن نلتقي مرة أخرى . ولكن أرجو أن تعرف أن هذه هي المرة الأولى في حياتي ، التي كلفت فيها بأن أدرب أحد الأشخاص في مثل هذه المدة الوجيزة ، واعتقد أنك سوف توفق .

كان الزائر مصيباً في حكمه رغم أن كل شيء ينبيء بالعكس ، فعلى خلاف الصفات السائدة فيمن يقومون بالأعمال السرية كان موظف البنك ، مصطفى الجردلي ، رجلا هادئا يميل إلى البدانة ذا وجه مستدير ينم عن الخمول ، وعينين خامدتين نصف مغلقتين وأنف مستطيل فوق فم رقيق الشفتين ، وعلى جانبي وجهه تبرز أذنان معوجتان قليلا من أعلى ، وهو لا يدخن ولا يشرب ، كان باختصار رب أسرة وادع ألف حياة الموظف الرتيبة ، ولا يمكن أن يدور بخلد أي مخلوق أن مثل هذا الإنسان يستطيع أن يلعب دور المغامر الجسور ، ذلك الدور الذي يتطلب ذكاء لاحد له ، وقدرة هائلة على المراوغة والتنكر . وأعني به دور العميل السري .

وأثناء أول رحلة من عمان ، أثبت مصطفى الجردلي أنه يختزن وراء بدانته وهدوئه وملامحه الخاملة ، قدرة هائلة على مواجهة المخاطر ، كان جريئا إلى حد التهور ، شجاعا إلى درجة المغامرة ، فقد تسلم من المخابرات العامة المصرية معدات التراسل بالقرب من جسر نهر الاردن ،

وبخطوات واثقة مضى إلى قدره عبر الجسر ووضع حقائبه أمام مفتشى الجمارك الإسرائيليين ثم تظاهر باللامبالاة .

كان يرتدى معطفا أبيض اللون من النوع الواقى من المطر ، وعندما أخذ الاسرائيليون فى تفتيش حقائبه حدثت كارثة إذ عثروا فى حقائب مسافر كان يقف بجواره على مجموعة من الأقلام الزمنية التى تستخدم فى تفجير الشحنات الناسفة فى الوقت المحدد لها ، وعلى الفور أخذ الإسرائيليون فى الصراخ بعصبية واقتادوا الجميع إلى كشك من الصاج لتفتيش أبدانهم ، ولكنه لم يفقد هدوءه أبدا . وفى تلك اللحظات البالغة الحرج ، بدأت المدفعية الأردنية فى قصف الإسرائيليين .

ذعر الاسرائيليون وقفزوا إلى الخنادق وعلى رأس الجسر احتمى عدد من الجنود داخل الدشم المبنية بالأسمنت المسلح ، وانبطح بعض المسافرين على الأرض فى العراء ، أما هو ، فلم يكن لديه وقت ، لذلك التقط أقرب الأختام إلى يده ، وفى هذه اللحظة ، سقطت دانة شديدة الانفجار بالقرب منه ، ولكنه حمل حقائبه وعبر منطقة التفتيش وعندما وصل إلى موقف سيارات الأجرة القريب ه تنفس الصعداء .

وطوال الفترة التى قضاها مصطفى الجوزلى فى العمل السرى كان يواجه المواقف الشائكة بنفس الهدوء .

كان يؤدي مهمته تحت ظلال أخطار تتهدده من كل صوب ، وتحت ظروف نفسية بالغة القسوة . فقد كانت ابنته الكبرى « منال » مريضة بدرجة مخيفة ، وكان ترقد ساكنة في مستشفى أساف هاروفيه ، ومع أن مشاعر الأبوة كانت تضغط أعصابه بشدة ، إلا أنه كان ينتهز فرصة زياراته لها لكي يراقب عن كثب معسكر صرفند القـــريب من المستشفى ، وعندما توفيت ابنته في نهاية الأمر شعر بالأسى وكسا الحزن ملامحه، ولكنه مضى كالطود الراسخ في تنفيذ واجبه ، دون لحظة استرخاء واحدة .

ومن الغريب حقا ، أن مصطفى الجردلي لم يحصل على أية مكافأة في المقابل ، وقد فوتح ذات مرة في أن العمل يتطلب بعض النفقات ولكنه أبى بإصرار ، وعندما اكتشف أن محدثه قد جلب معه دفعة من النقود من القاهرة ، هز كتفيه وهتف : نقود .. لقد كنت أعمل في البنك عندما دخل الإسرائيليون بأسلحتهم ، كانت آلاف الجنيهات ترقد تحت أقدامي ومدافعهم مصوبة إلى رأسي ، ما فائدة النقود ؟ الأسلحة أفضل ، صدقني ، إنني رجـــل ميسور الحال ولست في حاجة إلى نقودكم .

وفي بيته شمال مدينة غزة حتى الآن ، في منطقة الدرج قرب سدرة الخروبي ، أخفى مصطفى الجردلي معدات التجسس ببراعة ، لحفر حفرة خلف زر الكهرباء في غرفة نومه ووضع بداخلها الكاميرا وأخفى جهاز الإرسال وجداول الشفرة في درج سحري أسفل دولاب ثيابه . أما الحبر

السرى فوضعه فى زجاجة « انفستين » ودسها بين الأدوية فى أجزخانة الخاصة فى الصالة .

وكان عليه أن يجوس خلال إسرائيل وأن يذرع الطرقات من أقصى الشمال إلى أقصى الجنـــوب ، لكى يكتشف مواقع المعسكرات ومناطق التحصينات ومحطات الرادار ، ثم يعود إلى غزة لكى يرسل معلوماته إلى القاهرة بالشفرة وفى رسائل بالحبر السرى .

وبعد أن أغلق فرع البنك فى غزة أبوابه ونقلت حساباته إلى فرع عمان ، أصبح الجردلى بلا عمل منتظم ، وعرض عليه العمل فى الخليج ولكنه رفض وأخذ ينفق من مدخراته ونجح نجاحا مذهلا فى توطيد صداقته بمجموعة غريبة من الإسرائيليين، وكان أخلص أصدقائه ضابط مدفعية إسرائيلى يدعى جيكوب حكاك ، وأستاذ جامعى فى جامعة القدس العبرية يدعى نمرود رفائيل ، وامرأة تعمل فى مستشفى أساف هاروفيه تدعى مريم اشكنازى ، وجاويش فى البحرية يدعى سيمون نادل ، ومن أصدقائه هؤلاء حصل العميل الفطن على كم رهيب من المعلومات .

كان أفضل أصدقائه جيكوب حكاك ، وهو رجل ضخم ذو كرش بارز وعجيزة ضخمة وصدر متهدل . وكان شغوفا بالطعام والشراب كأنه خلق ليأكل . وكان مصطفى الجردلى يدرك نقطة الضعف فى صديقه ويضغط فوقها بصفة دائمة ، وكثيرا ما شوهد الرجلان معا فى مطعم

« أبو هويدى » على شاطىء البحر فى غزة ، وكان هذا المطعم الذى يقدم طبقا لذيذا من الأسماك مع بيرة «ستار» المثلجة ، هو المكان الأثير لدى جيكوب ، ولم يكن مصطفى يسمح لنفسه بقطرة واحدة من البيرة باعتباره مسلما لا يخفى تدينه ، أما جيكوب فكان يجرع البيرة قدحا وراء قدح ، وكثيرا ما كان يخلطها بالبراندى بينما مضيفه قابع فى سكون كثعلب نائم ، وبعد القدح الخامسة كان جيكوب يأخذ فى الثرثرة فاذا مافرغ من القدح الثامنة بدأ فى الحديث عن الجيش ، وعندما يصل إلى قمة سكره يأخذ فى الغناء .

وذات ليلة كاد مصطفى أن يفقد حياته بسبب صـــديقه السكير ، فبعد سهرة ممتعة التهم جيكوب خلالها كمية ضخمة من الأسماك وشرب برميلا من الكحول ، سار الرجلان معا فى الظلام وجيكوب يرفع عقيرته بأغنية بذيئة ، وقبل أن يصلا إلى ميدان فلسطين شعر جيكوب برغبة قوية فى أن يفرغ بعض السوائل من بدنه ، فعرج على زقاق ضيق ووقف إلى أحد الجدران ، وفيما كان يترنح وهو يحاول عبثا ان يتماسك قفز من الظلام ثلاثة فدائيين يبدو أنهم كانوا مختبئين هناك وامسك أحـــدهم بكتف جيكوب لكى يحز رقبته بالسكين ، ولكن جيكوب التعس فقد اتزانه من الرعب فسقط على الأرض ، وأصابت السكين جانب وجهه وأحدثت فيه جرحا بليغا أما مصطفى فلم يكن يود أن يدخل فى معركة مع بنى جلدته ، لذلك لاذ بالفرار .

وفى صباح اليوم التالى عثر على جيكوب ملقى على الأرض والدماء تنزف بغزارة من فكه ، وحاصرت الشرطة الاسرائيلية المنطقة كلها بحثا عن « المخربين !! » وعندما التقى مصطفى بجيكوب بعد الحادث كان الضابط الاسرائيلى عاتبا على صديقه لانه تركه تحت رحمة الرجال الثلاثة بمفرده ، ولكن وجبة جديدة من الأسماك كانت كافية لأن تطيب خاطره تماما .

أما نمرود روفائيل فكان له شأن آخر مع ذلك الرجل الفريد ، فقد كان نمرود ولا يزال أستاذ علم الاجتماع فى جامعة القدس العبرية ، وتحت ستار البحث العلمى ، واجراء الاحصاءات كلفته المخابرات الإسرائيلية باعداد دراسة وافية عن النازحين ، وليس هناك أدنى شـــك فى أن الاسرائيليين كانوا يطبقون آراء نمرود روفائيل ومقترحاته لكى يزيدوا من معدل النزوح العربى من إسرائيل ، وذات يوم التقى أستاذ الاجتماع برجلنا الذى فى الشمال وتبادلا حديثا عاديا ، واكتشف مصطفى الجردلى أن الأستاذ الموقر ليس سوى رجل كسول خامل يود أن يقضى حياته فى مقعد دون يحرك طرفا واحدا من أطرافه الأربعة ، وعلى الفور هب لنجدته ، فكان يقدم له تقارير مفصـــلة عن اللاجئين العرب ، أحوالهم المعيشية واهتماماتهم والأسباب التى تدفعهم إلى مغادرة البلاد ، وكان نمرود — وهو أصلا من يهود العراق — يعيـــد صياغة التقارير التى يتسلمها ويضيف اليها بعض الاصطلاحات العلمية ثم يقدمها إلى رؤسائه . ولم يكن أحد يعلم مطلقا أن التقارير التى تسلمتها المخابرات الإسرائيلية بهذا الخصوص طوال عام ١٩٦٩

وفى الخمسة أشهر الأولى من سنة ١٩٧٠ كانت تعد بعناية فى القاهرة

وكانت مريم اشكنازى ذات فائدة جمة هى الاخرى ، إذ كان عملها فى مستشفى أساف هاروفيه يتيح لها قدراً كبيراً من المعرفة بشئون معسكر صرفند ، ولم يكن الحديث مع هذه السيدة باهظ التكاليف ، وكانت بعض الهدايا البسيطة كفيلة بأن تحل عقدة لسانها ، وكان الثناء يستهويها بدرجة لا يصدقها العقل ، فقد كانت أشبه بالقردة ، ذراعين طويلتين وجذع قصير يميل إلى الأمام ويحمل فى أعلاه خلقة قبيحة . وفى أسفله اردافا متحجرة بارزة ، وفى بعض الأحيان كانت مريم تسمح لخيالهـــا أن يختلق بعض الروايات عن العشاق الذين يطاردونها ، وابتكرت لنفسها شخصية أسطورية عبارة عن جندى شرس متوحش ينتظرها بالقرب من سور المعسكر ويحاول اغتصابها. وكان مصطفى على عادته صبـــورا ، فكان يستمع إلى قصص تلك المسخ المشوهة وهو بادى السعادة. كذلك كان يمتدح «محاسنها» . .

وفى ميناء « اشدود » كان سيمون نادل مصدراً خصبا من مصادر معلومات الجردلى ، فبعد أن أصيب فى معركة المدمرة ايلات ، احيل إلى الأعمال المكتبية. وكان مسئولا عن صرف المهمات لذلك توافرت لديه أعداد الوحدات البحرية ، وأعداد اطقمها ، ورتب أفرادها ، وكانت الساعات الرهيبة التى قضاها فى الأمواج الشديدة البرودة بعد اغراق « إيلات » والمناظر المفزعة التى شاهدها وزملاؤه يقاومون

الموج والدماء تنزف من أجسادهم وجلودهم المحترقة ، قد تركت أثراً فى أعصابه . فأصبح يعانى من نوبات هستيرية متباعدة . ولم يكن يخفف من متاعبه سوى حقن المورفين ، وكان مصطفى الجردلى يحصل على هذه الحقن من مريم اشكنازى ويمد بها صديقه . وفى المقابل كان يتجسس على البحرية الإسرائيلية .

كون مصطفى هذه الحلقة العجيبة من جامعى المعلومات بجهوده الذاتية وبتوجيه من ضابط اتصاله المصرى ، ونظم علاقاته مع أفرادها باتقان ومهارة ، وكما عمل هو دون أجر ، كانت حلقته هى الأخرى بأقل التكاليف ، وكان واثقاً من نفسه معتداً بذكائه . يتحرك تحت ذلك القناع الخادع الذى منحته له الطبيعة ، الوجود الهادىء والعينين المغمضتين والمظهر الذى يدل على العادية والبساطة . ورغم ذلك تمكن من إمداد المخابرات العامة ببيان شامل لجميع محطات الرادار الإسرائيلية ، ومواصفاتها ، ومعلومات مثيرة عن جيش الدفاع الإسرائيلى وقواعده الجوية وقطعه البحرية .

والمثير حقا أن مصطفى الجردلى لم يلجأ إلى أية أساليب خارقة ، ولم يزعم ذلك مطلقاً ولكنه كان يركب سيارات الأجرة كأى مسافر عادى ويحرص على الوصول مبكراً لكى يحتل المقعد الأمامى المجاور للسائق ، ثم يبدأ عقله الذى يشبه الكمبيوتر فى العمل بمجرد تحرك السيارة ، فكان يسجل مواقع المعسكرات والأهداف العسكرية الأخرى ، وكان يحسب المسافات بقراءة عداد الكيلومترات وعندما



مصطفى الجردلي يصافح حاكم غزة

كان يصادف عـــداداً معطلا ، كان يقيس المسافة بقراءة السرعة وحساب الزمن .

ولكن الأمور لا تسير دائماً وفق ما نهوى ، فقد كان من السهل على عميل بهذا القدر من الذكاء أن يظل فى الخدمة العامة سنواته طويلة ، ولكن مصطفى الجردلى كان يعانى من « عقب اخيل » ، إذ كانت ظروفه تحتم عليه أن يرسل رسائله اللاسلكية من مكان واحد ، وهذه بالطبع مخالفة صارخة لقواعد تأمين العمل ، ورغم أن رسائله لم تكن منتظمة كما أنها كانت قليلة للغاية إلا أن الخطأ كان قائماً ، وحاولت القاهرة أن تدفع رجلها إلى استئجار مسكن فى مدينة الرملة لكى يكون « موقعاً تبادلياً » لجهاز الإرسال ولكنه تباطأ . وفى كل مرة حاولت فيها القاهرة أن تقدم عونها له كان يرفض بعناد ، وفى آخر مرة ظن ضباط المخابرات أن الرجل يخشى الاحتفاظ بالنقود المصرية فقدموا له رزمة من الليرات الإسرائيلية الجديدة إلا أنه لم يتزحزح ملليمتراً واحداً من عناده .

وفى مواجهة هذا الموقف الشائك والبالغ التعقيد تقرر الإقلال إلى أقصى حد من الإرسال اللاسلكى وفى المقابل زادت حركة الرسائل المكتوبة بالحبر السرى ، وكانت القاهرة تذيع تعليماتها بالراديو لمصطفى الجردلى على موجة خاصة فى الثامنة من مساء كل يوم ، ولكن محطات الاستماع انتشرت انتشاراً فظيعاً فى أيامنا هذه ، لذلك التقطت رسائله

اللاسلكية ، ورغم أن الإسرائيليين عجزوا عجزا بينا عن حل الشفرة التي كان يستخدمها إلا أنهم نجحوا في تحديد موقعه .

راقب الإسرائيليون البيت ، وبذلك وضعوا أصبعهم على أول الخيط . وكان من المنطقي أن يستولوا على أول رسالة مكتوبة وضعها الرجل في صندوق البريد بعد اكتشافه ، ومرة أخرى عجز الإسرائيليون عن إظهار كتابته السرية كما عجزوا من قبل عن حل شفرته ولكنهم لجأوا إلى متابعة نهاية الخيط بدلا من التخبط عند بدايته .

وأدرك المصريون أن شيئاً ما يجرى بالقرب من أنوفهم ، ومن المؤكد أنهم اكتشفوا الرقابة الإسرائيلية المفروضة على رجلهم ، فقد أبرقوا إليه عن طريق الراديو في السادس والعشرين من أبريل سنة ١٩٧٠ يطلبون منه أن يتوقف تماما عن ممارسة أى نشاط وأن يمتنع عن إرسال أية رسالة وأن ينتظر تعليمات على نفس الموجة في وقت لاحق .

وفي أول أيام مايو عاود المصريون إذاعتهم ، وكلفوه بأن يتخلص من كل ما في حوزته من معدات ووثائق ، وأخذوا في تكرار تلك البرقية الكئيبة أيام الثاني والثالث والرابع من نفس الشهر ، ويبدو أنهم كانوا محقين في تكرار أوامرهم ، لأنه تردد في بداية الأمر ثم اضطر إلى التنفيذ ، وكانت أصعب لحظاته هي تلك التي أحرق فيها مجموعة ثمينة

من صور الطائرات ، وبعض المطارات ، ثم خلد إلى الصمت يترقب المستقبل .

وفى اليوم الخامس من مايو أقدم الإسرائيليون على حماقة جديدة ، إذ أرسلوا أحد أفراد قسم « الجوازات » إلى بيت مصطفى الجردلى يستدعيه للمثول أمام الضابط المختص ، وأيقن هو على الفور أن أوامر القاهرة لم تكن على سبيل الهزل ، فودع زوجته وطفليه ثم قدم نفسه صباح اليوم التالى إلى « الجوازات » ولكنه لم يجد الضابط المختص هناك ، لذلك انصرف وعاد فى العاشرة صباحا يوم ٧ مايو سنة ١٩٧٠ .

دخل مصطفى الجردلى إلى مبنى الجوازات — وهو مواجه لمبنى المجلس التشريعى — فى ذلك الصباح المشئوم وهو بادى الحيوية يتظاهر بالسكينة ، وعندما قدم نفسه إلى الضابط المختص اكتشف أنه عجوز تخطى الخمسين من عمره رغم صغر رتبته ، ودعاه الكهل إلى الجلوس ثم تركه فى الغرفة مع امرأة كانت تدق على الآلة الكاتبة ، وبعد دقائق دخل إلى الغرفة شخصان يرتديان ثياب الجيش ويحمل كل منهما رشاش « عوزى » ، جلس أحدهما بينه وبين الباب ، ومد ساقيه أمامه ليسد الطريق ، وانهمك الثانى فى مغازلة فتاة الآلة الكاتبة بكلمات فاجرة ، وأدرك الثعلب بذكاء غريب أن الخطوة الأولى قد اتخذت ، وأدرك أيضاً أنه قد وقع فى قبضة المخابرات الإسرائيلية وترك لخياله العنان ليتصور رحلة الإرهاب التى تنتظره ، وفى تلك اللحظة

تحول موظف البنك العادي بكل ما فى مظهره من وداعة وطمأنينة إلى كتلة مصمتة من الفولاذ .

وفى الحادية عشرة والنصف وصل إلى المكان اثنان من رجال المخابرات، واستدعى الثعلب الأسمر إلى الخارج ، وعندما تحرك فى الممر المؤدى إلى عدد آخر من المكاتب ، كان موكبه مهيبا، فأمامه كان أحد الجنديين وخلفه ضابطا المخابرات والجندى الآخر ، وكان هو جديرا بهذا الموكب ، ثابت الخطوات مرفوع الرأس ، أما عقله فكان يعمل بسرعة مجنونة فعلا .

وفى غرفة أخرى اتخذ الاستقبال طابعا كوميديا فى البداية إذ طلب منه أن يجلس ثم انتحى أحد الضابطين بزميله والجنديين جانبا فى ركن الغرفة وراحوا يتهامسون، وبعد دقيقتين غادر الجنديان الغرفة ورابطا بالقرب من بابها واشعل الضابط الأكبر سنا سيجارة ثم قدمها «لضيفه» إلا أن الضيف المهذب اعتذر بأنه لايدخن ، وعندئذ استدار الضابط الآخر فجأة وهتف :

ــ لقد باعك المصريون ..

كان للعبارة وقع خاص رددت أصداءه جنبات الغرفة ، وبدت علامات الدهشة على وجه مصطفى الجردلى بصدق ، ولكنه أفاق من المباغتة بسرعة وقطب جبينه ثم تظاهر بأنه لم يفهم ، وبذل الضابطان

جهوداً هائلة لكى يحملوه على أن يفتح فمه ، ولكنه كان عنيدا مع الإسرائيليين كما كان عنيداً مع المصريين .

ومرة أخرى كان هناك موكب مهيب فى انتظاره ، فقد نقلوه من مبنى الجوازات إلى سجن غزة المركزى داخل سيارة مصفحة نصف مجنزرة ، وأمام سيارته تحركت سيارة جيب ويلز وخلفها سيارتان من طراز « ساب » تابعتان للمخابرات .

ولم يكن للاسرائيليين سوى مطلب واحد ، مطلب واحد ألحوا عليه وركزوا حوله أسئلتهم ووعودهم . بل إنهم تعهدوا بأن يطلقوا سراحه إذا تحقق لهم مطلبهم ، أقسموا بتوراتهم وأنبيائهم وشرفهم ولكنه لم يتخاذل أبدا ، وكان مطلبهم ينحصر فى سؤال بسيط ومختصر: ما هو حل الشفرة ؟ وأعتقد أن بوسعى الجزم بأنهم لم يحصلوا على إجابة لهذا السؤال حتى الآن .

ولكى يدلل الإسرائيليون للسجين على مقدرتهم فاجأوه بصورة قديمة له وهو يصافح حاكم غزة ، وحاولوا اقناعه بأن هذه الصورة سوف تستخدم كدليل كاف على تعامله مع المخابرات العامة المصرية عند تقديمه للمحاكمة ، ولكنه سخر منهم بمرارة وأجاب بأن هذه الصورة كانت محفوظة بين أوراقه الخاصة فى بيته ، وأنها لا تمثل أى دليل ضده ، وأضاف أن إنكاره لتهمة التجسس لا يعنى أنه يتنصل

من إخلاصه لمصر « التى حاربت من أجلنا دون وجود أى اتفاق للدفاع المشترك » .

وفى زنزانته عثر مصطفى الجردلى على إنسان يمكن أن يبادله الحديث بمودة ، وكان السجين الآخر بدويا من النقب ، والمعروف أن الإنسان فى مثل هذا الموقف يسمح لنفسه بالتحلل من النهج الذى يتخذه فى مواجهة العدو ، وقد يفصح بوضوح وتفصيل عن كل أسراره. ولكن مصطفى كان ذكيا ، إذ قبع فى ركن الزنزانة وأحنى رأسه بين ركبته وأخذ يصلى ، والمذهل أن البدوى كشف عن حقيقة مهمته على الفور ، فقد كان مدسوسا عليه لكى يستخلص منه المعلومات التى عجز الاسرائيليون عن استدراجه إلى الإفضاء بها .

وأمام هذا الفشل الذريع لم تجد المخابرات الإسرائيلية مناصا من تقديمه للمحاكمة ، وكان محاميه ويدعى فايز أبو رحمة ، يحاول عبثا اقناع القضاة بأن المتهم لم يقترف أية جريمة لأن الادعاء لم يقدم للمحكمة أى دليل يكفى لإدانته .

وفى النهاية صدر الحكم بسجن مصطفى الجردلى لمدة خمس عشرة سنة عن كل تهمة من التهم الخمس التى وجهت إليه ، والتى تدور حول التخابر مع دولة معاديه .

ولكن الحقيقة ، التى لم يعرفها الإسرائيليون حتى هذه اللحظة

أن دور رجلنا الذى فى الشمال لم يكتمل إلا بصدور هذا الحكم لأنه تحول بطريقة لا تخطر ببال إلى عين لمصر فى سجون إسرائيل .

* * *

لقد سقط الجردلى فى يد العدو ، وسقوط العميل فى قبضة عدوه ، بصرف النظر عن نتائج هذا السقوط ، نهاية بالغة الكآبة لنشاطه فى عالم الجاسوسية ، ولكى يدلل رجال المخابرات المتخصصون على حتمية هذه النهاية فإنهم لا يستخدمون كلمة سقوط أو كلمة اكتشاف بل يعمدون إلى تعبير يثير فى النفس إحساسا بالرهبة ويدفع الإنسان العادى إلى الشعور بالأسى ، ويتلخص هذا التعبير المأساوى فى كلمة واحدة وهى :

احترق . .

احترق « الجردلى » إذن بمجرد أن ضم الإسرائيليون قبضتهم عليه. وطبقاً لقواعد علم المخابرات التقليدية ، كان المفروض أن تتحول العلاقة بين جهاز المخابرات العامة المصرية وبينه إلى نوع من الصلات الإنسانية كتقديم العون — بطريقة غير مباشرة — له ولأسرته ، واخطار الصليب الأحمر الدولى لكى يبذل جهوده من أجل رعايته ، وإرسال بعض الرسائل وطرود الهدايا من عناوين وهمية لا تثير الشك ، ولكن الذى حدث كان مختلفا .

كان هو نمطا فريدا ، لم يمارس عمله الخطر طمعا فى المال ، ولم يأمل قط فى الحصول على نفع من أى لون ، وإنما كان رجلا مخلصا

متدفق الحماس قادرا على صنع المعجزات ، لذلك اقترح أحد الضباط أن يستمر « الجردلى » كمين من عيون القاهرة حتى وهو وراء قضبان السجن ، إلى أن تحين الفرصة لانقاذه .

وعندما نوقش الاقتراح الغريب الذى لقى مايستحق من معارضة ، تدخل المدير فى المناقشة وحسم الأمر بهدوء قائلا : اننا نخالف القواعد التقليدية ، ولكن ماهو التطور أيها السادة ؟ انه الخروج عما هو تقليدى ، إذن دعونا نجرب . .

ولم تكن التجربة هذه المرة خالية من المصاعب ، ولم تكن هناك سابقة يمكن الاسترشاد بها ، بل كانت ريادة حقيقية بكل مافى الريادة من مواجهة لأخطار المجهول ومغالبة للصعاب التى تبرز بشكل مفاجىء ، والتى تنجم عن استحالة وضع حساب مسبق شامل لكل الظروف ، وكان على من ارتضوا القيام بهذه العملية الخارقة ، والتى يمكن أن توصف بالمغامرة ، أن يحملوا على عاتقهم مهمة التنفيذ وفق الأسس السائدة فى دنيا المخابرات ، تلك الأسس غير المكتوبة . رغم انها مقدسة والتى تتلخص فى أن الاخطاء والمبررات والمعاذير ، لا يمكن قبولها مهما كانت متطابقة مع المنطق . .

كانت المشكلة المستعصية فى العملية كما هى وسيلة النقل ، هذه العقدة المستحكمة التى طالما ألهبت خيال رجل المخابرات الذكى القادر على الابتكار ، فالمعلومة شأنها شأن كل المحظورات تكون فى أرضها سهلة الحصد لاتساوى شيئا ، وإنما تكتسب قيمتها الخرافية بعد نقلها ، لذلك

كان جل جهد المخابرات موجها إلى ابتـــداع وسائل نقل عسيرة الاكتشاف ، ومن هنا جاء ذلك التعريف الشائع للمخابرات بأنها المعلومات المنقولة والمقـدرة القيمة ، وهو تعريف يقترب كثيرا من الصواب .

وفى نفس الوقت ، كانت الحالة نموذجية إلى أقصى حد ، فرجلنا ليس مهددا بخطر السقوط لأنه بين مخالب العدو فعلا ، الأمر الذى يجعـــل مهمته — على عكس ما يتبادر إلى الذهن — أكثر سهولة ، والمحيطون به من الحراس والسجناء ، لن يتحفظوا مطلقا فى الأفضاء بما لديهم أمامه وأمام هذا الاغراء ، كان على المصريين أن يبحثوا عن وسيلة يرسلون بها توجيهاتهم اليه ، ويتلقون بها ما يجمعه من معلومات ، مرورا بجدار السجن فى الذهاب والعودة بالطبع .

طرحت المشكلة على بساط البحث وعرضت أفكار بالغة التعقيد ، وكانت فى متناول أيدى الباحثين كل المعلومات المتاحة ، نظم الحراسة والأمن ومواعيد تغيير الخدمات ، وتوقيتات مستلزمات الحياة اليومية فى سجون إسرائيل ، كذلك كانت هناك صور لبوابات هذه السجون ونطاقات الاسلاك الشائـكة وأبراج الحراسة وأماكن الـكشافات المبهرة وأعداد الـكلاب البوليسية المستخدمة ، بالإضافة إلى نماذج مصغرة لتضاريس المنطقة المحيطة بكل سجن ومناخها على مدار السنة ، مع بيان كامل لعدد الأفراد الذين يحتمل أن تكلل محاولات تجنيدهم

بالنجاح ، والتكاليف المحتملة للقيام باستمالتهم من أجل المعاونة في التنفيذ .

وبينما كان كبار الضباط غارقين وسط غمار هذا الخضم من الخرائط والرسوم والصور والبيانات ، كان أحد الضباط الشبان منصرفا إلى التحديق عبر نافذة غرفة الاجتماعات في الخلاء اللانهائي الممتد بجوار مبنى المخابرات العامة في اتجاه الغرب ، وكان يبدو كما لو أنه مستغرق في الاستمتاع بمراقبة المراعي وأشجار السنط وهو ينفث دخان سيجارته على السطح الزجاجي تحت أشعة الشمس ، وعلى مسافة غير بعيدة من الغرفة التي احتشد فيها أكبر عدد من العقول البالغة الحدة والتي يكاد الانسان أن يستمع إلى ضجيج خلاياها وهي تعمل بقسوة ، كان فلاح بسيط يرعى بقرة داكنة اللون ، بالقرب من جدول رفيع ينساب بنعومة وسط الحقول ، وفجأة هتف ذلك الضابط وهو ما زال محدقا عبر النافذة .

لم لا نستخدم البيض ؟

سقطت العبارة وسط الغرفة فأحدثت دوائر متتابعة يتزايد اتساعها كلما بعدت عن المركز ، وتوقف ضابط كان يدير شريطا مسجلا لصيحات حراس سجن الرملة في ركن الغرفة القصي عن إحداث الجلبة ، وتثاءب ضابط آخر أشيب الشعر ثم ضاقت عيناه وامتعض دون أن ينطق ، وبالقرب من الجدار كان ضابط يقف أمام خريطة ملونة وفي

يده عدسة ، وقد استدار ببطء ثم تحرك بهدوء ووضع يديه على المائدة وعندئذ عبر عن رأيه :

هذه وسيلة بالية . .

ومرة أخرى بدأت الدوائر المتباعدة فى التكسر والعودة فى الاتجاه المضاد نحو المركز ، وتحلق الجميع حول المائدة فى هيئة من الفوضى ، قاله الأشيب والامتعاض يذوب ببطء من فوق ملامحه : ولكنهم لا يعرفونها . ووجد صاحب الاقتراح أن الفرصة مواتية لكى يحصل على الأغلبية . فهمس بثقة : كذلك لم يحدث مطلقا أن استخدموها من قبل . واتخذ القرار بالإجماع . وفى نفس اللحظة ، كان مصطفى الجردلى هناك ، على بعد شاسع من الرجال الذين يتشاورون بشأن مستقبله ، وادعا مستسلما بين يدى حراسه فى عربة مقفلة تحرسها المجنزرات ، يتجه نحو سجن عسقلان .

كان قد تعود على التنفس وهو معصوب العينين مغلول اليد مكوم فوق أرضية العربة الصلبة ، وعندما وصل إلى أول طريق مجدل — عسقلان تعرف على موقعه بالمطبات والحفر التى تملأ المنطقة ، وقد انتهت واحدة من الرحلات الشاقة أمام أبواب السجن ، كان عالمه قد تبدل بشكل حاد ، وربما انتابته حالة من اليأس المفزع ، وفيما بعد قال لى أن تحرير فلسطين اتخذ فى أعماقه طعما مغايرا ، كان تحرير أرضه قبل ذلك حلما وطنيا يصبو اليه كمواطن مخلص ، ولكنه أصبح رمزاً لحريته الشخصية ، بعد أن سمع بأذنيه الحكم بسجنه ، وطوال الأعوام

الأربعة التى قضاها فى محبسه ، كان الجردلى يمد سمعه كل ليلة عبر الجدران الصماء لعله يسمع هدير دبابات المصريين أو أزيز طائراتهم . ولم يكن فى وسعه أن يأمل فى أى شىء آخر .

ووسط المتاعب والظلمة وأحلام اليقظة حدث مالم يكن يتوقعه الأسير . إذ وفد إلى سجن عسقلان ذات ليلة من ليالى نوفمبر سنة ١٩٧٠ سجين متهم بالاعتداء على أحد جنود الشرطة ، وكان هذا السجين ينتظر الإحالة إلى المحـــاكمة ، وفيما كان طابور السجناء يقف أمام الزنازين لاجراء « العد اليومى » ، أحدث السجين الجديد ضجة مابعدها ضجة ، إذ أخذ فى الصراخ بالعربية والعبرية وراح يسب الحراس والضباط ، وتكوكب الحراس حوله فى محاولة يائسة لاسكاته ، ولكنه تحمل الركل والصفع وصيحاته تجلجل فى العنبر الذى نادرا ما يرتفع فيه صوت غير صوت المزاليج والاقفال ، ولم يجد الحراس مفرا من اقتياده إلى غرفة فى نهاية الممر يسمونها زنزانة « العقاب » وعندما عبروا به أمام زنزانة الجردلى . كان صياحه مع أوامر الحراس أشبه بسيمفونية غوغائية يعزفها أحد المجانين ، وفى اللحظة المناسبة أفلت السجين من يدى حراسه وتعلق بكتفى الجردلى . وسرعان ما تخاطفته أيدى الجنود مرة أخرى ولكنه كان قد همس فى أذنه بكلمات قليلة . وكانت هذه الكلمات كافية .

وبعد هذه الحادثة بشهر وبضعة أيام حل عيد الميلاد وأرسلت إلى الجردلى مثل بقية السجناء هدية متواضعة بمناسبة العيد . علبة من الكرتون

بها دجاجة محمرة وأربع برتقالات وقطعتان من الجاتوه وثلاث بيضات مسلوقة . وقد فتشت الهدية بعناية فائقة عند بوابة السجن ، ثم فتشت بدقه أشد فى غرفة مأمور السجن . وأخيرا قام الحراس بتوزيع الهدايا على السجناء ، وكما هى العادة فى معظم سجون العالم ، استولى السجان على نصيب الأسد من هدية السجين ، فاختفت الدجاجة ومعها ثمرتان من الفاكهة ، ولم يجد الجردلى فى علبة الكرتون سوى البيض المسلوق مخلوطا بالمواد اللزجة التى يصنع منها الجاتوه ، ولم يكن يطمع فى أكثر من ذلك مطلقا .

كانت الحيلة طريفة بقدر ما كانت مفرطة فى البساطة ، إذ كانت رسائل المصريين تصل إلى رجلهم تحت قشر البيض ، وبوسع القارىء أن يمارس هذه اللعبة بنفسه ، أحضر بيضة دجاجة نيئة وأى حمض أسيتى ثم اكتب رسالتك بالحمض على قشرة البيضة مستخدما أى قلم عادى للكتابة ، بعد ذلك اسلق البيضة إلى أن تنضج ، وسوف تفاجأ عند نزع القشرة الخارجية برسالتك مطبوعة على البيضة من الداخل بوضوح كامل !

وطوال الخمسة أشهر الأولى من عام ١٩٧١ كان مصطفى الجردلى يقرأ « رسائل البيض » بعناية ثم يبتلعها بنهم ، وكانت الهدايا التى تصل اليه من المنظمات الدولية ومن أسرته ومن بعض معارفه تحتوى دائما على البيض المسلوق ، وذات ليلة فوجىء الجردلى برسالة غريبة إلى أقصى حد ، كانت مقتضبة شأنها شأن كل الرسائل ، ليس لضيق المكان ولكن لأن هذه هى عادة اجهزة المخابرات ، وكان مبعث غرابتها يرجع إلى الأمر الذى تضمنته ، بأن يثير الشغب بصفة دائمة . .

ولأن الرجل كان قد تعود على أساليب المخابرات ، كما نمت لديه عن اقتناع كامل غريزة الطاعة شرع على الفور فى تنفيذ الأوامر الجديدة ، وفى صباح اليـــوم التالى أعلن عن إضراب مفاجىء عن الطعام ، ورفض زيارة الصليب الأحمر ، وأثناء الليل ، ارتفع صياحه بدرجة مفزعة ، وعلى إثر ذلك تقرر نقله إلى سجن كفاريونا .

وبوصول الجردلى ، فى السادس عشر من مايو ١٩٧١ إلى سجن كفاريونا ، ويعرف أحيانا باسم سجن بيت ليد ، أصبحت الحياة أقل كآبة ، فبعد ليلتين اثنتين فى سجنه الجديد فوجىء بمسئول الزيارة ويدعى يوسف شمعون ، يقترب من زنزانته ، ويهمس فى أذنه بأن بعض الأصدقاء قد تحدثوا إليه بشأنه ، ووعده بأن يجلب له من خارج السجن أى شىء تهفو اليه نفسه ، كذلك وعده بأن يسمح لأسرته بزيارته أكثر من المعدل الذى تقضى به لوائح السجن ، وقد عبر الجردلى عن امتنانه همسا هو الآخر ، ثم قبع فى انتظار ما يأتى به المستقبل .

كان يوسف شمعون هذا رجلا ضخم الجثة كث الشارب أحمر الوجه تنطق ملامحه بالبلاهة وضيق الأفق ، وهو فى نفس الوقت مقامر تعس سوء التقدير يخسر دائما ، ورغم هيئته المهيبة إلا أنه كان يمارس المقامرة بنفس الأسلوب الذى تمارس به البقرة أعمال المزرعة ، لذلك كان فى حاجة متصلة إلى النقود ، وقد تمكن المصريون من شرائه عن طريق أحد الوسطاء . وحتى لا تحاكم السلطات الإسرائيلية هذا الرجل ، فإننا نقرر بأمانة أنه لم يكن يدرك مدى ما فى عمله هذا من جرم ،

وكان يعتقد أن المسألة لا تعدو كونها توصية عادية تتكرر بانتظام كلما وفد إلى السجن متهم ثرى إلى حد ما .

وعن طريق مسئول الزيارة فى سجن « كفاريونا » أصبح الجردلى على صلة منتظمة بالمصريين ، واستبدلت رسائل البيض برسائل مكتوبة كانت تخبأ داخل الأطعمة والحلوى ، كذلك كانت هذه الهدايا التى حملها شمعون عن طيب خاطر ، تضم فى ثناياها أدوات الكتابة السرية ولم تزد هذه الأدوات عن قلم من الأبنوس يكتب كتابة عادية فى الظروف العادية ، فإذا نزعت مؤخرته تبرز رأس أخرى خلفها مخزن صغير مملوء بالحبر السرى ، وقد حرص شمعون حرصاً فائقاً على تسليم رسائل السجين بنفس الدقة التى كان يسلمه بها رسائل أسرته ومعارفه ، ولم يكن الرجل جشعاً ، إذ كان يتقاضى مائة ليرة إسرائيلية عن كل رسالة وفى بعض الأحيان كان يتلقى مكافأة إضافية .

وطوال إقامته فى كفاريونا ، كان الجردلى يمد المخابرات العامة المصرية بالمعلومات ، وكان يستقصى معلوماته من الحراس والسجناء على السواء ، وعلى الأخص السجناء الفارين من خدمة جيش الدفاع ، أما أثمن ما كان يقدمه من معلومات فكان ذلك المتعلق بعملاء القاهرة المعتقلين فى السجون الإسرائيلية .

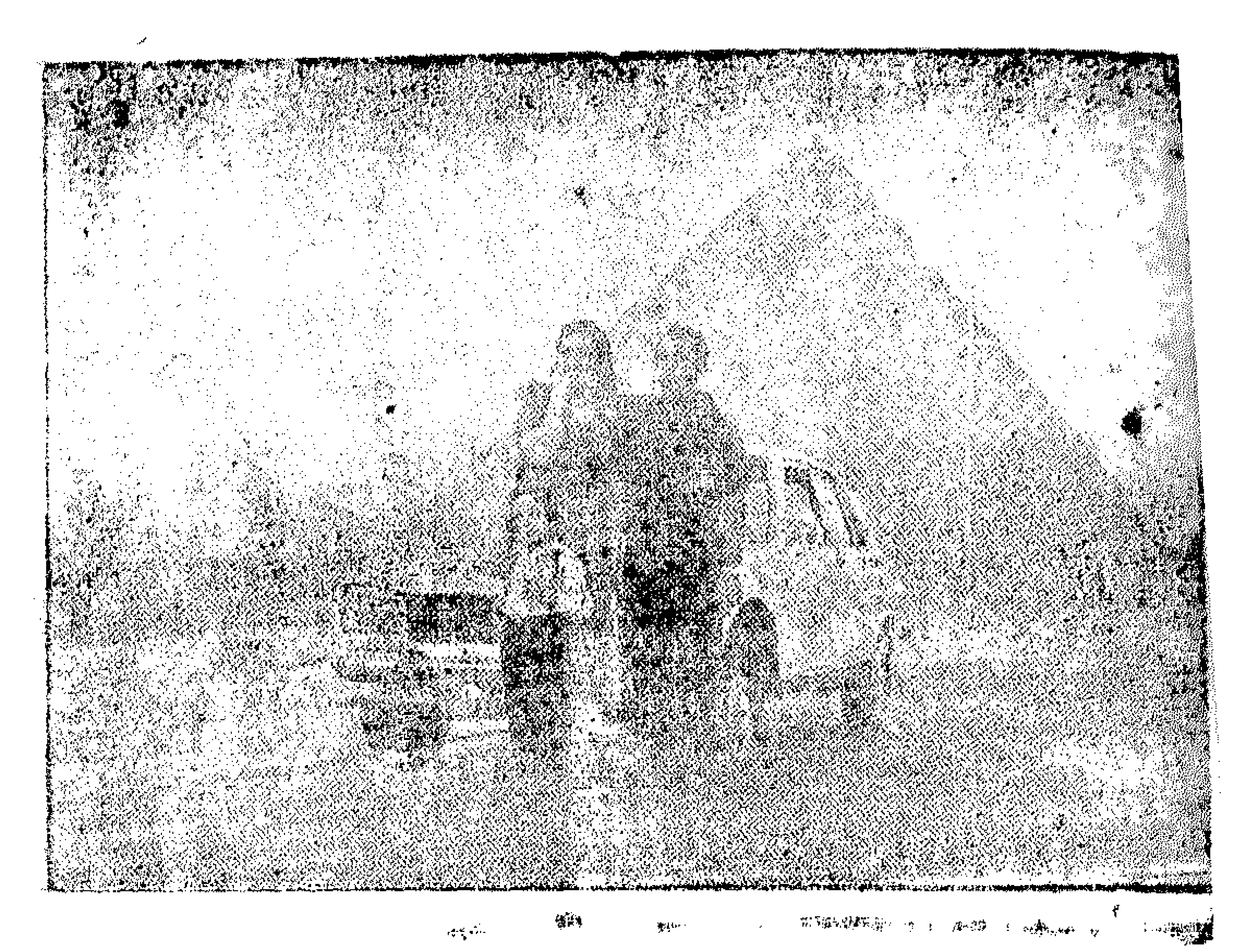
ولكن الأمور لا تسير دائماً وفق الخطط الناجحة ، فقد ضبط يوسف شمعون فى نوفمبر ١٩٧٢ وهو يهرب بعض المأكولات والسجاير للسجناء ، وسرعان ما انهار ذلك الثور الغبى واعترف بأسماء عدد

منهم ولأن الجردلى كان أحد هؤلاء ، تقرر نقله إلى سجن آخر بأقصى سرعة .

ويبدو أن الإسرائيليين يعانون من قصور فظيع فى إجراءاتهم البوليسية ، لأنهم نقلوا الجردلى إلى سجن عسقلان حيث قضى ليلتين نقل بعدهما إلى سجن الرملة ، وهناك قضى يوماً واحداً ثم صدرت الأوامر بنقله إلى سجن شطا ، ولم يلبث فى شطا ساعات حتى صدرت الأوامر مرة أخرى بنقله إلى سجن بئر سبع ، وعندئذ استقرت الأوامر المتضاربة وبقى هناك سنة كاملة .

وفى بئر سبع أقدم الجردلى على المبادرة هذه المرة ، فبينما كان المصريون يحاولون الاقتراب منه بأية وسيلة ، تعرف على « دانييل زايتزيف » ، وكان « دانييل » هذا شاباً متورم التقاطيع عريض الجبهة ذا عينين ضيقتين وأنف مزكوم بصفة دائمة ، وعندما كان فى أوكرانيا قبل أن يهاجر إلى إسرائيل كان يعمل مصوراً ، ويبدو أنه كان مصوراً متجولا ولكنه يزعم أنه كان يمتلك « ستوديو » خاصا فى مدينة كييف ، وقد منى بخيبة أمل عظيمة لأنه عين منظفاً للزبائن فى سجن بئر سبع .

وسرعان ما عقد الجردلى صفقة رائعة مع اليهودى المغبون ، ومرة أخرى عادت الرسائل بينه وبين القاهرة إلى الانتظام ، ومن هذه الرسائل عرف المصريون أن سور سجن الرملة الخارجى مهدم فى بقعة تقع مباشرة أمام غرفة الغسيل ، وكان الجردلى قد أبدى هذه



الجرمل بعد وصوله إلى القاهرة مع أسرته فى صحراء الاهرام

الملاحظة التى تبدو تافهة فى إحدى رسائله ، واتضح فيما بعد ، أن الليلة التى قضاها فى سجن الرملة لم تضع هباء ، لأن المصريين أعدوا خطة لتهريب اثنين من عملائهم كانا محتجزين فى هذا السجن وكانت المحاولة بالنجاح ، وتمكن الرجلان من الإفلات بعد أن نشرا قضبان نافذة غرفة الغسيل ، وعندما اكتشف الحراس الإسرائيليون المأساة ، أطلقوا النار فى كل اتجاه ، وللأسف أصيب سجين يدعى سمير درويش وهو ابن عم الشاعر محمود درويش ، أما العميلان فوصلا بسلام إلى القاهرة ، بعد رحلة حفلت بأقصى صنوف الإثارة سوف نشرحها بالتفصيل فى وقت لاحق .

وبعد أن أمضى الجردلى قرابة الاحد عشر شهرا فى بئر سبع ، حدث ما كان يأمل فى حدوثه منذ أن قبض عليه ، إذ سمع أزيز طائرات تندفع بجنون فى اتجاه الغرب ، كان الوقت وقت تناول طعام الغداء ، وكان هو يبتلع طعامه المكون من البطاطس والخبز الجاف وحساء البصل ، وكان يخفى فى طيات ثيابه بعض الفاكهة التى جلبها له دانييل ، وقد أدرك على الفور أن شيئا ما يجرى فى السماء ، ولأول مرة لم يستطع ذلك العميل البارع أن يسيطر على مشاعره فأخرج الفاكهة وقذف بها إلى زملائه ثم شرع فى الهتاف ، ولكن صيحات الحراس ألزمته الوقار ، ثم اقتادوه مع زملائه إلى زنزاتهم وأغلقوا الأبواب . وفى الليل ، أطفئت الأنوار لأول مرة فى السجن وحدث هياج وأخذ البعض فى الرقص . فقد تأكدوا أن الحرب نشبت ، وقضى السجناء ليلة مترقبة لم يغمض لهم خلالها جفن ، وفى الصباح لاحظ

الجردلى أن الرشاشات المضادة للطائرات قد أحاطت بسور السجن واختفى الحراس وحل محلهم حراس من اليهود الروس قادمون حديثاً لا يعرفون العبرية ولا العربية . وفى التاسع من أكتوبر . شوهد مدير السجن وهو يبكى ، وشددت الإجراءات بعد ذلك بشكل انتقامى ، وعرف السجناء أن المدير فقد ابنه فى الحرب .

وفى اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١٩٧٣ نقل الجردلى إلى سجن غزة . وهناك استقر فى « حيلك جيمل » ومعناها بالعبرية قسم ج . حيث السجناء الخطرون . ولكنه كان مطمئن النفس هادئاً . رغم قسوة السجن وسوء الطعام وخشونة المعاملة ، كان يعمل فكره بحثاً عن وسيلة جديدة يتصل عن طريقها بالمخابرات التى تفانى فى خدمتها .

وعندما حل الثالث من مارس ١٩٧٤ كان الجردلى قد يئس تماماً من التفكير فى هذه المسألة المرهقة ، وكان يتعجب لأن المصريين لم يتمكنوا من توصيل أية رسالة إليه ، ولم يكن يعرف أنهم نفضوا أيديهم من مسألة الاتصال به ، وقد انتابته حالة من الكآبة وقبل أن يخلد إلى النوم ، سب أحد الحراس بكلمات نابية ، وراح يدق بقبضتيه على باب زنزانته حتى إذا ما أخذ منه التعب كل مأخذ استلقى على الأرض واستغرق فى النوم ، وفى الساعة الثانية صباحاً فوجىء بالحراس يوقظونه ، وكانت القصة أشبه بحلم بهيج .

كانت تقف فى فناء السجن عربة أتوبيس ، وعندما هبط الجردلى إلى الطابق الأول ، كان عدد آخر من السجناء يقفون وهم يفركون

عيونهم ، والحراس ينادون الأسماء بينما وقف الضباط وعلى ملامحهم شعور بالانكسار لا تخطئه العين الفاحصة ، ووصلت إلى المكان عربة أتوبيس بها عدد آخر من السجناء ، وجاء رجـــلان يضعان فوق صدريهما علامة الصليب الأحمر ، كانت العبارات مقتضبة ولكنها أجمل عبارات يمكن لإنسان أن يستمع إليها ، فقد تمت عملية تبادل سلمت إسرائيل بمقتضاها عدداً من عملاء القاهرة، وعندما تحركت عربة الأتوبيس من فناء سجن غزة فى طريقها إلى مدينة القنطرة ، كان السجناء يهللون ويتصايحون ، وفى مقعد مجاور للنافذة كان سجين واحد يبدو غارقاً فى تأملاته الخاصة ، وقد رفع عينيه وحدق فى الضباط الذين وقفوا وكأنهم يشيعون جنازة ، ثم أغلق النافذة بهدوء واستغرق فى النوم ولم يفتح عينيه إلا عندما وصلت العربة إلى القنطرة شرق ، فهناك ، وهناك فقط ، هبت نسمات الحرية .



جاسوس مختشيم

حسن البواب

كان عمره سنة واحدة عندما أقيمت دولة إسرائيل ، تختلط فى ذاكرته صور العربات المتدافعة وأصوات بكاء الثكالى وعويل امرأة جنت من هول الكارثة ، بعد رحلة عذاب لا يمكن وصفها استقرت أسرته فى معسكر من معسكرات اللاجئين ، وهناك شب عن الطوق يغمر البؤس كل خطوة من خطواته المتعبة ، ويتنفس المعاناة والشعور بالقهر ، ويتلفت حوله لعله يعثر فى الأفق على طوق نجاة يتعلق به .

ومن القصص التى روتها له أمه عرف أن مسقط رأسه كان «يافا» هناك كان أبوه يمتلك متجراً ، وهناك كان لديهم بيت ، بيت حقيقى ينتمى إليهم وينتمون إليه ، ولقد ظلوا حتى بعد أن دهمتهم المأساة لا يصدقون ما يجرى من حولهم ، الشجرة العتيقة التى كانت تنشر ظلالها على عتبة بيتهم لم تعد رمزاً للسلام والمحبة ، خلفها كان شباب العرب يحتمون وهم يطلقون النار من أسلحتهم البدائية على اليهود ، وتحتها سقط عدد كبير منهم ضحية الغدر والخسة والتآمر والتخاذل أيضاً .

كانت المأساة تسيطر على تفكيره وهو ينمو يوماً بعد يوم ، وكان معسكرهم على شاطىء البحر في غزة . الخيام المهلهلة التي تفتقد إلى الاستقرار علمته أن أحداً لن يعيد له بيته ما لم يغتصبه بنفسه ، والوجوه المصفرة التي كانت تطالعه كل صباح ، تحمل شحنات الحقد المكبوت وآثار الجوع والمذلة والحاجة ، كشفت له مدى الزيف الذي كان يملأ العالم المتحضر الذي كان يرقب المأساة بعين نصف مغمضة .

وبدلا من المتجر الذي كان لهم قامت عشة من الصفيح ، وكان أبوه الكهل يكسب قوت يومه عن طريق أعمال السمكرة ، والسمكرة الوحيدة التي تستطيع أن تمارسها وسط اللاجئين لا تتعدى إصلاح « مواقد الجاز » فهناك لا أحد يمتلك عربة ، والعربات بعيدة ترقد مطمئنة في قصور الذين تاجروا بقضية شعب بأكمله ، الذين اشدقوا بكلمات النضال والبطولة والفداء ثم خلدوا إلى الراحة وهم يتثاءبون .

وفي ظل التعاسة التي لا يمكن تصورها كان من الصعب عليه أن يتعلم ، أتم دراسة الإعدادية وبقي شهوراً في الصف الأول الثانوي ثم عجزت مواقد الجاز المعطلة عن إمداده بما يقيم أوده ، وفي نفس الوقت ، كانت الثورة قد تأججت في صدره بما فيه الكفاية ، لذلك هجر المدرسة والتحق بمركز التدريب المهني التابع لوكالة غوث اللاجئين ، تلك المؤسسة التي تعبر عن شعور الإنسانية بالذنب والتي تعد في حد ذاتها دليلا على التناقض الصارخ الذي يسيطر على الإنسان ، الإنسان

الذى يخفى مخالبه المضرجة بالدم ويرتدى الثياب الأوربية ، ثم يتجول وادعا فى أروقة الأمم المتحدة .

وبعد سنتين قضاهما حسن البواب فى مركز التدريب وجد نفسه أمام خيار عجيب ، أن يذهب فى بعثة دراسية إلى السويد أو ألمانيا أو سويسرا أو القاهرة ، ولم يكن يود أن يرحل إلى أوربا ، حيث قد تبهره الحضارة الأوربية فيستقر وينسى بيته الذى ما زال فى يافا ، لذلك أصر على أن يتم دراسته فى القاهرة .

وجاء حسن البواب إلى القاهرة فى ديسمبر ١٩٦٦ ، وكانت القاهرة وقتئذ هى القاهرة فى كل وقت ، قلعة الصمود الأسطورية التى قهرت كل تيارات الغزو أيا كان الغزاة ، يقوم عند مشارفها الجنوبية أعظم نصب أقامه الإنسان منذ أن عرف الإنسان ، وترتفع عند طرفها الشرقى مآذن قلعة صلاح الدين . وبين الأهرام والقلعة ، كان الشعب العريق يفتح ذراعيه مرحباً بكل المناضلين .

والتحق الفلسطينى المعذب بمركز التدريب التابع لشركة الحديد والصلب فى حلوان ، وفى حلوان أيضاً استأجر لنفسه غرفة ، فى منزل من طابق واحد بشارع زكى ، وهناك ، بدأ يتعرف لأول مرة على مذاق البيت ، فكان يقضى ساعات فراغه قابعا فى غرفته يحدق فى السقف يتأمل الجدران التى لا تعنى بالنسبة لمن يواجهون التشرد شيئاً ذا بال ، ولكنها كانت تعنى بالنسبة له عالما قائما بذاته ، تنضح

بالطمأنينة و يتحطم فوق سطحها الخوف . وبدأ أيضاً فى التعرف على معنى الإحساس بالأوبة .

وفى بعض الأحيان كان حسن البواب يذهب فى محاولة لاستكشاف العالم المحيط به ، وفى العطلات الأسبوعية ، كان يستمتع بقضاء النهار فى الحديقة اليابانية ، فإذا ما انقضى النهار اتجه إلى رابطة عمال فلسطين ، ولأنه دقيق البدن لايقوى على الأعمال الشاقة أو الرياضة العنيفة ، كان يكتفى بممارسة لعبة تنس الطاولة ، وقد أحب هذه اللعبة واتقنها وبرع فيها ، وانتهى الأمر بأن حصل حسن البواب على دبلوم فنى وعمل موظفاً فى شركة الحديد والصلب ، وأصبح يتقاضى أجراً منظماً ، ولأول مرة فى حياته كلها عقد هدنة مع القدر ، وأخذت الابتسامة تعرف الطريق إلى شفتيه ، وفجأة ، عاد القدر إلى ألعابه المعقوتة معه ، إذ حلت النكبة بالوطن العربى كله .

كانت فاجعة ١٩٦٧ بالنسبة لحسن البـــواب ذات معنى يختلف عن معناها بالنسبة للعرب جميعاً ، فاليهود الذين اقتلعوا جذوره من يافا يلاحقونه الآن فى غزة ، لم يكتفوا بالدمار الذى ألحقوه بفلسطين وها هم يجربون رذائلهم فى الضفة الغربية وفى المرتفعات السورية ، وأهم من ذلك كله فى سيناء ، الأرض المقدسة تطؤها أقدام اليهود ، وأدرك هو أن المحنة سوف تجلب المصريين بكل قواهم إلى الساحة ، قبل ذلك كانوا يحاربون من أجل نصرة شعب تقع أرضه

عند باب الشمالى الشرقى ، أما الآن فسوف يحاربون بكل ما يختزنونه من طاقات كامنة .

ولأنه وحيد والديه وصلته رسالة من الصليب الأحمر ، فى إطار خطة إنسانية يسمونها « جمع الشمل » ومرة أخرى وجد نفسه أمام خيار عجيب: أن يبقى فى القاهرة حيث الرزق والبيت والحديقة اليابانية والشعور بالأمان ، أو أن يسافر إلى غزة ليبقى إلى جوار أسرته ، ولقد فكر وأمعن التفكير ، ولم يكن القرار سهلا ، لأن الإنسان لا يمضى باختياره ليضع نفسه فى قبضة عدوه ، خصوصا إذا كان عدوه من ذلك الطراز البغيض المسمى بالإسرائيليين .

كان يضم جوانحه على الثورة والتمزق والقلق ولكنه لم يسمح لأحد مطلقاً بأن يطلع على ما فى نفسه ، واستمر فى ممارسة حياته المعتادة دون أن يشرك الآخرين فى متاعبه ، وحتى عندما كان يجلس وسط بنى جلدته فى الرابطة كان يكتفى بمراقبة ما يجرى حوله دون أن يشارك فى المناقشات الدائرة ، ودون أن يفصح عن آرائه الشخصية ، وعلى حين فجأة ظهر فى حياته شاب غريب .

كان الغريب يقاربه فى العمر ، أسمر البشرة طويل القامة عريض الفكين تنطق ملامحه بالألفة ، وقد جاء إلى مقر الرابطة عصر يوم من أيام يناير ١٩٦٩ ، بصحبة صديق فلسطينى ، وعندما قدمه صديقه إلى حسن قال له أنه مهندس فى مصانع الطائرات ، وفى نفس اليوم لعبا معا مباراة حبية ، كان الغريب يسدد الكرة البيضاء بقوة ثم يتلقاها

فى الاتجاه الذى تأتى منه وكأنه يتوقع ضربة خصمه بحساب لا يعتريه أبداً أى خطأ ، وعندما هزم حسن البواب فى نهاية المباراة صافحه بقوة وتمنى له حظا أطيب فى المرة القادمة .

وفى اليوم التالى وجد حسن أن شيئا ما يجذبه إلى الرابطة ، ومرة أخرى عادت الكرة البيضاء إلى القفز المجنون بينهما ، وحاول هو بلا جدوى أن ينتصر ، فقد كان الغريب ذا دراية باللعبة لا ينال منه التعب أبدا ، وعندما جلسا فى النهاية ليشربا شيئا دار بينهما حديث الأصدقاء ، واقترح الغريب أن يلتقيا فى صباح اليوم التالى الذى كان يوافق يوم عطلة . ولكن حسن اعتذر بأنه يقضى الصباح فى الخلاء ، لعله ينفس عن الضيق الذى يعتريه أحيانا .

وفى الصباح اتخذ حسن البواب طريقــــه كالمعتاد إلى الحديقة اليابانية ، وهناك انتحى جانبا بعيدا وافترش العشب وأغمض عينيه لينعم بأشعة شمس الشتاء المحببة ، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ، وكانت شجرة قريبة تبعثر ظل أوراقها فوق وجهه مع كل هبة ريح ، وقد حدث أن تململ فى رقدته وأسند ساعده فوق جبهته وشعر برغبة طارئة فى النوم ، ولكنه سمع وقع أقدام لينة تقترب ، ورأى ظلا مستطيلا يسقط فوق صدره ويمتد لمسافة قصيرة إلى يساره ففتح عينيه .

كان الغريب واقفا فوق رأسه وأكتافه العريضة تحجب مساحة من السماء الصافية . وكان يرتدى سترة من الجلد فوق فانلة عالية

الرقبة وتتدلى من كتفه حقيبة رقيقة منتفخة ، وقد ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة ودودة تنم عن الاندهاش ، ورحب كل منهما بالآخر ، وشكرا تلك المصادفة السعيدة التى قادتهما إلى نفس البقعة ، وأخرج الغريب من حقيبته عدداً من الأشياء ، قطعة مربعة من المشمع الرمادى فرشها على العشب ، وكتابا فى صيد النمور ، وجهاز راديو ترانزستور وترمس يترجرج بداخله الشاى الساخن ، ولفافة من الورق بها كمية لا بأس بها من السندويتشات وست برتقالات ، ومدية حادة النصل لامعة .

خلع الغريب سترته وتمدد هو الآخر بجوار حسن وقد تحدث فى البداية عن الطقس ثم تحول الحديث إلى الحياة ومتاعبها ، وأشار الغريب إلى أن أسرته تقيم فى أقصى الصعيد ، وأنه لم ير أمه منذ أكثر من سنة ، وقال حسن أن المشكلة تكمن فى مدى قدرتنا على أن نفعل ما يحلو لنا ، أنت تشعر بالشوق ولكنك لا تشعر بالقهر ، أما هو فأساته أن بينه وبين أسرته حاجزا رهيبا ، أحياناً يتمنى لو أن له جناحين ليحلق كالطيور المهاجرة ويحط عند معسكرهم البعيد ، وأحياناً يتمنى لو أن السماء منحته قوة خرافية ليشق طريقه وسط الإسرائيليين ، يقتلهم كما قتلوا إخوته ، يلقيهم من رؤوس الجبال ويمزق أوصالهم . هذا هو العقاب الوحيد الذى يجب أن يتلقاه لعقة الدم .

أنصت الغريب وهو يمرر نصل مديته على باطن يده وخيل إلى حسن أنه ابتسم بشكل ما ، وعندما جاء دوره ليتكلم كان صوته معبراً قويا كما لو أن قرونا طويلة تتزاحم فى حنجرته ، وقد رفض أحلام اليقظة كأسلوب لحل المشكلة ، وأشار بأصبعه إلى السماء وهو يؤكد أن السماء

لا تهب لنجدة الضعفاء إلا إذا تسلحوا بكل ما تصل إليه أيديهم من أسلحة ، أن نهزم مرة ومرتين وثلاثا فليس معنى هذا أنهم أقوى ، ففي النهاية سوف نهزمهم ، نحن أقدر على الحياة لأننا نحن الذين علمنا الآخرين معنى الحياة والحضارة والتقدم ، إذا هزمناهم مرة فلن تقوم لهم قائمة أبدا .

يدعون أنهم كانوا فى فلسطين وكانت لهم هنا دولة ، دعنا نصدق أنهم أحفاد الذين عاشوا فى فلسطين قبل الميلاد ، هذه الدعوى قبل كل شيء ليست فى صالحهم فقد عجزوا عن الاحتفاظ بالأرض . وتفرقوا فى أرجاء الدنيا . خذ مثلا نحن ، من الذى استطاع أن يقتلع جذورنا من الوادى الخصب . منذ أن كان التاريخ ونحن نحرس النهر . قديما كانت عقدة الإنسان أن يعثر على الماء وأن يغتصب مصدره ولكننا لم نسمح لأحد بأن يدفعنا إلى التيه مهما كانت قوة الصراع ومرارة الصدام ومعاناة الشعور بالظلم .

ــ يجب أن تعود إلى غزة . .

نطق الغريب بهذه العبارة ثم شد قامته وجلس . نزع غطاء الترمس وملأه بالشاى ومد يده به إلى حسن . رفض الأخير أن يتناول الشاى شاكرا ، ثم هتف : ولكن الإسرائيليين هناك وأنا أمقتهم .

ــ أعتقد أنى أمقتهم أنا الآخر .

ــ إذن . لن أعود لأشهد مأساتى فى وقع أقدامهم .

ــ ستعود لكى تعاوننى من أجل هدفنا معا .

ــ أعاونك ؟ كيف ؟

وكان السؤال الأخير بداية رحلة حسن البواب إلى عالم المخابرات .
وكان هو سعيداً لأنه عثر فى النهاية على دور يستطيع أن يؤديه ، وكان إخلاصه حافزاً ذا أثر بالغ الأهمية فى مقدرته التى تجلت عندما بدأ فى تلقى تدريبه القاسى على التجسس ، فقد قيل له منذ أول لحظة أن الخطأ غير مقبول لأى سبب ، لأن عقاب الخطأ فى هذا العالم السرى يختلف عن أى عقاب فى أى مجال ، العقاب هنا ليس سوى نهاية كئيبة لا تتحمل أى شك .

ففى الأسبوع الأول من فبراير صدرت الأوامر لحسن البواب بأن يتوجه إلى طبيب الشركة وأن يشكو مرضاً خفيفاً ينتاب معدته ، ولاحظ هو أن الطبيب لم يدقق كثيراً فى فحصه كما خيل إليه أنه رمقه بطرف عينيه عندما دخل إلى العيادة ، وفى المرات التى تردد فيها على الطبيب فيما بعد ، كان يحصـــــل على أجازات مرضية طويلة ويودع بحرارة .

ورغم أن مهمته كانت محددة منذ بدايتها كما أن كل تفاصيلها كانت مدروسة بعناية ، إلا أنه تلقى تدريباً إضافياً توقياً للطوارىء ، فقد كان من المقرر أن يرسل معلوماته عن طريق الكتابة السرية ومع ذلك درب على التصوير بالميكروفيلم وعلى الإرسال اللاسلكى وكان الهدف الرئيسى الذى وجه نحوه مصنعاً فى بئرسبع يعرف باسم مصنع «خاشيم» .

كذلك تلقى حسن البواب تدريباً على اكتشاف المراقبة والافلات منها ومواجهة مراحل الضبط والاستجواب المختلفة ، وتعلم الإخفاء

والتمويه واختلاق قصص التغطية . وقضى شهراً بأكمله فى التدريب على تخطى العوائق وكيفيـة تقدير المسافات وتمييز الأسلحة ومعدات الرادار ، بالإضافة إلى التدريبات المتعلقة بقراءة الخرائط وتقوية الذاكرة والمشاهدة ودقة الملاحظة ، وفن جمع المعلومات عن طريق استدراج الآخرين لـكى يبوحوا بما لديهم

وبقدر ما كان تدريبه قاسياً كانت اختباراته قاسية هى الأخرى ، فكان الغريب الذى كان رفيق رحلته من أولها يصحبه فى الليالى الحالكة الظلمة إلى الصحراء ثم يطلب منه أن يحدد له بدقة كل التفاصيل ، المسافة التى قطعها والمعالم الأرضية البارزة التى مر بها ونوع الطرق واتساعها والمنشآت المقامة وآثار عجلات العربات المطبوعة على الرمال وأنواعها ووجهتها ، إلى آخر هذا الخضم المتلاطم من المعلومات التى يتوجب على الجاسوس ألا يغفل عن أى منها .

ونمت بينه وبين الغريب صداقة وطيدة وإن كانت من نوع فريد ، فقد كان مرتبطا ارتباطاً وثيقاً بشخص كل ما يعرفه عنه أنه أحد ضباط المخابرات العامة المصرية ، ومع ذلك فقد شعر بأنه أقرب الناس إليه ، وأحبهم إلى نفسه، وبمرور الزمن تعود على أساليب المخابرات ، ولم يعد يشعر بالنفور حيال مقتضيات السرية والتكتم ،حتى إذا ما أتم فترة التدريب واجتاز الاختبارات المعقدة بنجاح ، غدا إنساناً آخر ، جاسوساً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، واعتقد أنه استحق شرف الخدمة عن جدارة حقيقية .

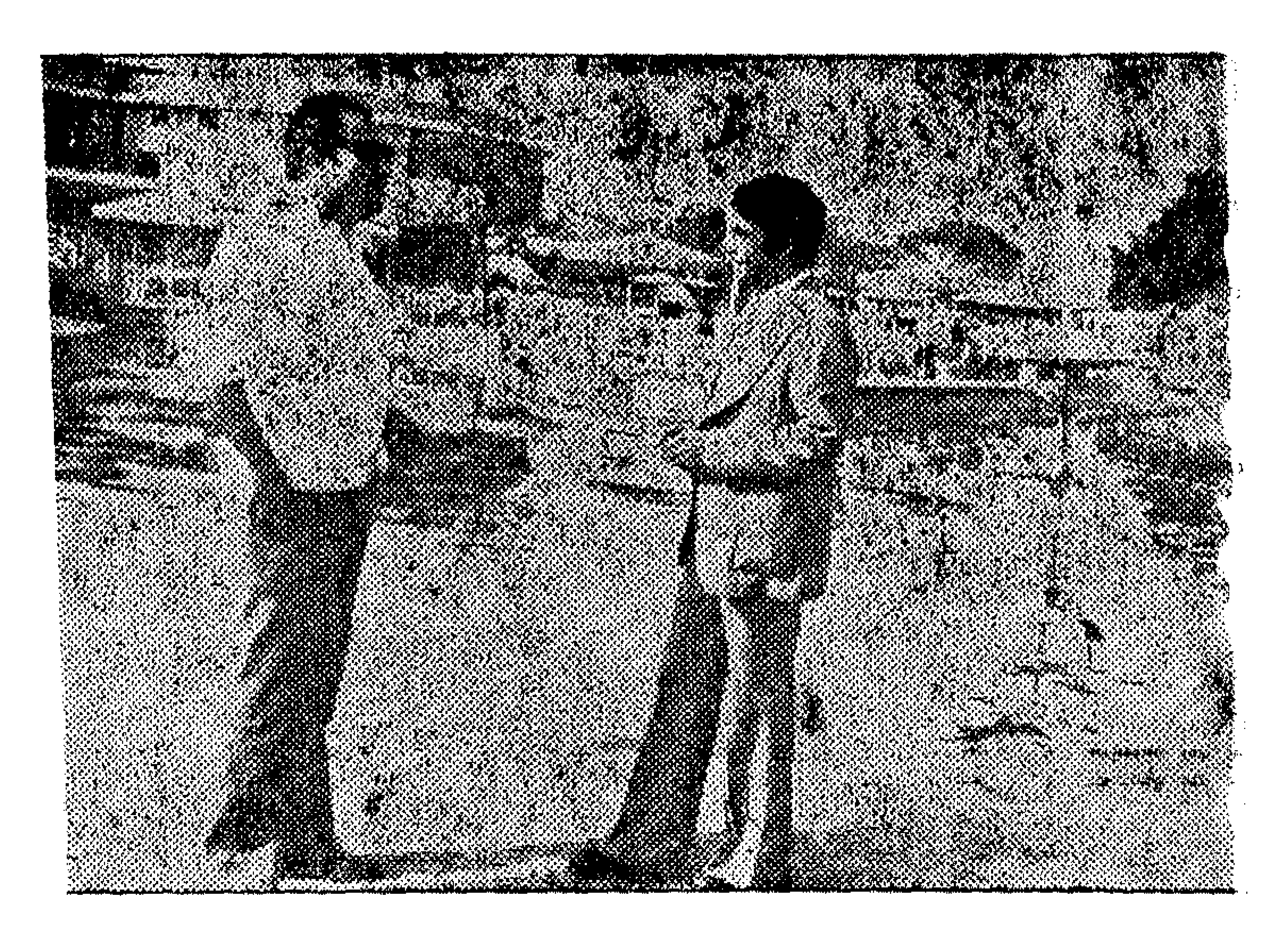
وكانت أخطر خطوة فى العملية كلها ، هى تلك الخاصة بمروره أثناء العودة محملا بمعدات التجسس أمام نقاط التفتيش الإسرائيلية ، وكان عليه أن يتخطى نقطتين رئيسيتين ، الأولى على الشاطىء الشرقى لقناة السويس والثانية فى مكتب المخابرات الإسرائيلية فى غزة . ولم يكن يجهل أن الإسرائيليين سوف يجردونه من ثيابه تماماً ، وقال له المصريون سوف نساعدك على المرور من أول نقطة وعليك أن تجلس بجوار النافذة فى الأتوبيس الذى سينقلك إلى غزة وعند مشارف المدينة أقذف بالربطة المحتوية على معدات التجسس إلى الرمال ، وبعد ذلك عد وابحث عنها .

وزوده المصريون بجهاز دقيق للإرسال وكامبرا من طراز مينوكس وأنبوبة معدنية بها مسحوق للكتابة السرية وأمروه أن يوزع هذه المعدات على جيوب سترته ، وحصل أيضاً على كيس صغير من البلاستيك مبطن بالاسفنج ومزود بشريط للرباط ، لكى يلف فيه هذه المعدات عندما تحين لحظة إلقائها على الرمال ، هناك عند الطرف الجنوبى لمدينة غزة . ولقد اعترف لى حسن البواب بأنه شعر بالخوف ، وخصوصاً أن المصريين لم يفصحوا له عن الوسيلة التى سيساعدونه بها فى المرور من النقطة الأولى . ولكنه كان قد تعلم أن يثق فيما يقال له ، وأن ينفذ ما يكلف بتنفيذه حتى لو بدا فى نظره مستحيلا ، وذات يوم صارح صديقه بالخوف الذى يعتمل فى أعماقه ، وبدلا من أن يؤنبه ضحك ببراءة ونصحه بأن يسيطر على مشاعره ، وكرر على مسامعه أن سلامته لم تعد مسألة شخصية ولكنها قومية أيضاً .

وفى الثامن والعشرين من يوليو ١٩٦٩ كان حسن البواب يقف مع غيره من المسافرين ضمن برنامج «جمع الشمل». كهول ونسوة عجائز وأطفال وشبان مزقت المحنة شمل أسرهم ويحاولون عبثاً أن يتخطوا الأحزان، وقد نقلوا فى ستة أتوبيسات إلى القنطرة غرب وكانت آخر كلمات الغريب مازالت تطن فى إذنه، فعندما حانت لحظة الرحيل فى اليوم السابق صافحه بيد ووضع اليد الأخرى على كتفه وهمس :

إذا وقعت فى مأزق فتذكر أنى سوف أبذل كل جهدى لنجدتك، وتذكر أيضاً أنك لست وحدك فالله معك .

وعلى الشاطىء روجعت القوائم وتوديع الأسماء وجاء مندوبو الصليب الأحمر. وعلى الشاطىء الآخر كان الإسرائيليون يقفون ووراءهم أتوبيسات رمادية تابعة لشركة تدعى «ايجد»، وأجرى مندوبو الصليب الأحمر اتصالا لاسلكياً بزملائهم على الضفة الشرقية، وعلى سطح القناة كانت مجموعة من الزوارق تهتز كالبط فى انتظار المسافرين بينما وقف أربعة من الضباط المصريين يراقبون الموقف وخلفهم وقفت ثلة من الجنود وأيديهم تقبض على المدافع الرشاشة. وقبل أن يهبط أول المسافرين إلى الماء ـ ولم يكن هذا المسافر سوى حسن البواب نفسه ـ حدث ما لم يتوقعه أحد، إذ تحولت السماء إلى قطعة من الجحيم، وارتفع صفير دانات المدفعية الشديدة الانفجار وهى تمرق من الغرب إلى الشرق، وخيل إلى حسن البواب أن يوم الحساب قد حل، وأن زلزالا رهيباً قد اجتاح العالم، وتتابع صوت الانفجارات فرقعة مكتومة يعقبها صفير الدانة فى السماء، ثم انفجار يتردد صداه فى الأفق



أ سامى عبد الحميد وحسن الهواب فى حديقة الهيلاند

وتوالى اهتزازات الأرض تحت الأقدام كالموج، وصرخ ضابط مصرى فى سائق الأتوبيسات لكى يتراجعوا بعرباتهم إلى الخلف ، وسارع مندوبو الصليب الأحمر إلى أجهزتهم اللاسلكية ليتصلوا بالقيادة المصرية لعلها توقف إطلاق النار ، واختفى الإسرائيليون كالجرذان من على الضفة الشرقية وقال ضابط مصرى لمندوبى الصليب الأحمر :

— اسرعوا . . لم تقفون هكذا ؟ يجب أن تعبروا إلى الشرق . .

كان ستار النيران الرهيب يتراجع فى الصحراء ببطء رتيب مخلفاً سحابة هائلة من الدخان الأسود ، وأطلق مدفع إسرائيلى طلقة حمقاء على الضفة الغربية ولكنه لم يعاود الكرة ، وعادت اتصالات الصليب الأحمر المحمومة تطالب بإيقاف النيران ، وبدأ صفير الدانات يتضاءل إلى أن انقشع ، وهرول المسافرون إلى الزوارق ، وعندما وصلوا إلى الضفة الشرقية ارتفعت رأس إسرائيلية لترقب الموقف وفى تلك اللحظة بدأت الدانات فى الصفير من جديد .

ومن الخنادق والدشم المسلحة أخذ الإسرائيليون فى إصدار الأوامر وتدافع المسافرون إلى الأتوبيسات التى هجرها سائقوها ، وعندما توقف القصف هرع الإسرائيليون إلى حيث اختبأ السائقون وأجبروهم على الصعود إلى عرباتهم ، ومرة أخرى بدأ القصف بإيقاع أشد عنفاً وأكثر قسوة .

فرت الأتوبيسات مذعورة وتفرقت فى الصحراء ، واضطر الإسرائيليون إلى تجميع القطيع الشارد على مسافة عشرين كيلومتر من

الشاطىء وهناك أعادوا توزيع الركاب فجمعوا الشباب فى عربة ووضعوا معهم عشرة جنود بأسلحتهم ، وفكر أحد الضباط فى إجراء التفتيش الذى تعود أن يجريه بفظاظة ولكن ستارة النيران كانت تقترب. لذلك هتف والضيق يكاد أن يقتله :

— إن المصريين يريدون قتلكم .

وابتسم حسن البواب ساخراً فقد كان هو الوحيد بين المسافرين وبين كل من شهد جحيم المدفعية فى ذلك الصباح الذى يعرف السر .

ومنذ أول لحظة له فوق أرض سيناء بدأ الجاسوس القدير ممارسة عمله ففتح عينيه على اتساعهما يرقب جانبى الطريق ويسجل فى ذاكرته مواقع المعسكرات وأنواع الأسلحة وآثار العربات والمجنزرات التى توغل فى الصحراء . كان يشعر بالارتياح ولكنه كان يحس بنبض المعدات الرهيبة الملتصقة بجلده ،وقبل أن يصل إلى خان يونس فكر فى إخراجها ولكنه عدل عن فكرته وبعد أن هبط مواطنو خان يونس تحركت العربات مرة أخرى فى اتجاه غزة ، وعند مشارف المدينة وفى النقطة التى حددوها له فى القاهرة أخرج معداته وربطها بعناية ثم أسقطها بهدوء واسترخى فى مقعده .

وفى غزة أدخل حسن البواب إلى مكتب المخابرات الإسرائيلية. وكان أحد الضباط يجلس إلى مكتب من الصاج بينما وقف جنديان للحراسة ، وفى أقصى الغرفة كان يقف ضابط آخر ذو سحنة منفرة

تدعو إلى العداء والضغينة ، وأمره الضابط الجالس إلى المكتب أن يتجرد من ثيابه ثم أمره أن يسير إلى أن وصل إلى الجدار ، وبعد أن تركه فى هذا الوضع حوالى خمس دقائق أمره أن يستدير ويعود إلى مكانه وأخيراً سمح له بارتداء ثيابه وأن ينصرف .

ومع حرارة اللقاء بعد غياب ثلاث سنوات كان حسن البواب يبادل أسرته مشاعر الحب وهو يفكر إذ كانت تنتظره مهمة متعددة المراحل ، فقد كان عليه أن يخرج فى نفس الليلة إلى حيث أسقط معداته ليستعيدها ، وكان عليه أن يتقدم بعد ذلك فى الصباح الباكر إلى السلطات الإسرائيلية لكى يحصل على تصريح عمل وأن يسافر بعد ذلك إلى بئر سبع لينضم إلى قافلة العمال البؤساء فى مصنع « مختشيم » .

وفى منتصف الليل خرج رجل القاهرة متسللا من معسكر الشاطىء فى اتجاه الصحراء كان الظلام حالكاً وهو يستحث الخطى كالثعلب بينما عيناه تلمعان باليقظة والترقب ولم يكابد عناء كبيراً فى العثور على المكان ولكنه لم يتمكن من التعرف على الكيس الرمادى فى الظلام ، ولم يكن يحبذ الاستعانة بأى ضوء لذلك جثى على ركبتيه وراح يتحسس المنطقة المجاورة للطريق بكفه واصطدمت يده بشىء لين فرفعه عن الأرض وهاله أن أنفه زكمته رائحة كريهة ، واستمرت اللعبة المرهقة قرابة ساعتين والعرق يتصبب من وجهه رغم هواء الصحراء البارد وأخيراً عثر على الكيس اللعين فتنفس الصعداء .

كانت رحلة العودة تتطلب أقصى قدر من الحذر فى جعبته مجموعة

من الأشياء التي تكفي لأن يقضي بقية عمره وراء جدران السجن ، لذلك ابتعد عن الطريق الممهد وأخذ يغذ السير في الصحراء ، وانقضت ساعتان وهو يلهث فوق الرمال بحذاء الطريق، وقد قطع المسافة الخطرة ولم يتبق أمامه سوى قرابة ثلاثة كيلومترات وفجأة سطع ضوء كشاف قوي في عينيه وسمع صوتا يصرخ بالعبرية :

ــ قف وإلا أطلقت النار .

وشعر حسن البواب كأن ثعبانا ضخما ينشب أنيـــابه في قلبه مباشرة .

ذعر « البواب » وارتعدت فرائصه ولكنه تماسك قدر استطاعته، غمره الضوء الكاشف وبرزت من خلال الظلمة فوهات سوداء مخيفة تتجه كلما صوب بدنه النحيل . . كانوا شرذمة من الجند وعلى رأسهم ضابط أشبه بقطاع الطرق . .

سأله الضابط بلسان ملتو : عربي؟!

أجاب البواب وهو يرتعد : نعم .

وأمروه أن يجلس القرفصاء فأطاع ، وبدأ القراصنة في ممارسة لعبة الرعب ، أخذوا في إطلاق النار فوق رأسه ، كان الكيس الرمادي في سترته فوق الحزام ، وكان حلم حياته أن يغفـــل الإسرائيليون عن تفتيشه بحثا عن السجاير والنقود كما تعودوا دائماً . . وبالفعل ، وبعد فترة رهيبة سئم القراصنة من اللعبة فأمروه أن يجري وهم

يقهقهون والرصاص يتلاحق بجوار قدميه ، حـــتى إذا ما تقطعت أنفاسه وابتعد بما فيه الكفاية انبطح على الأرض وهو يقاوم الرغبة فى البكاء .

وفى تلك الليلة الحافلة لم يغمض للبواب جفن ، وعندما جاء الفجر يغمر غزة بنسماته الرطيبة كان قد فرغ من اخفاء معداته الخطيرة ، وما أن أشرقت الشمس حتى خرج يسعى من أجل الرزق .

ولم يكن تصريح العمل معضلة بالنسبة له ، فعندما كان فى القاهرة قال له المصريون ، يجب أن تحصل على التصريح ، جواز المرور إلى مصنع « كنتشيم » ــ الحديد والصلب ــ أبذل جهدك كله وسوف تحصل عليه . ومضت العملية خطوة خطوة دون أن يسمح الشاب المغامرة لنفسه بوقفة ليلتقط أنفاسه ، ولكن ما أن وصل إلى مصنع « كنتشيم » حتى اكتشف أن لا عمل له هناك ، عندئذ استجمع كل ما تعلمه من قدرة على الصبر والسيطرة على النفس وصرخ : أعطونى أى عمل . لقد مضت ثلاثة أيام دون أن اتذوق طعم الطعام ، الرحمـــة أيها السادة . ولكن السادة الذين توارثوا الشعور بالذل والمهانة لم يستطيعوا أبدا أن يتقمصوا دور الأحرار . رمقه المدير بنظرة استعلاء وأشاح بوجهه بعيدا ، ويبدو أنه تذكر فجأة وسيلة جديدة لتعذيب العربى الذى كان يتصنع المذلة بين يديه ، وسيلة غير التجويع والارهاب وامتصاص الدم ، إذ حدق فى وجهه بغلاظة ثم أعلن أن العمل الوحيد الشاغر فى المصنع هو حمل القمامة !! وارتضى البواب ــ الحاصل على دبلوم فنى والثانوية العامة فى نفس الوقت ــ ارتضى أن يقوم

بأعمال النظافة فى مصنع « مختشيم » بل وكان يشعر بالسعادة والفخر . فها هو يضحى من أجل قضيته . وكما أن الثواب فى الآخرة يزداد تبعا للمعاناة . . فان الرضا عن الذات فى الجاسوسية يطرد وفق ما يبذله الجاسوس — الذى يعمل من أجل وطنه — من تضحيات . وليس فى الدنيا كلها ثواب يعدل رضاء الجاسوس العامل لوطنه عن ذاته واحترامه لنفسه وثقته .

كانت أعمال النظافة ساتراً جيداً لا يمكن لاحد أن يخترقه بسهولة ، كما كانت هـــذه الأعمال بمثابة نافذة مطلة بالنفايات إلى مكاتب المهندسين والملاحظـــين وأقسام الحسابات والتخطيط والمتابعة .

وفى نهاية كل يوم ، كان البواب يجمع حصيلة نهاره من مسودات الخطابات والرسوم وقوائم المشتريات وجداول الإنتاج وبيانات التسويق .

وأصبح منظر « البواب » وهو يتجول فى المكاتب والعنابر وصالات التجميع - بثيابه المتسخة وقامته الضئيلة وكيس القمامة المدلى فوق ظهره - مألوفا للجميع . وكان أشد ما يلاقيه من عنت يأتى من تصرفات العمال الاسرائيليين . أما بالنسبة للمهندسين والرؤساء فكان منظره هذا كافيا لارضاء نزعة التشفى المسيطرة على نفوسهم .

كان العمال يضطهدونه ويتحينون الفرص لالحاق الأذى به . وكان هو يتعجب فى قرارة نفسه من سلوكهم حياله ، فهـــذه الفئة من

الاسرائيليين تعانى من الفرقة والتعصب . فهم جميعا من يهود الشرق . ويهود الشرق هم أدنى درجة فى إسرائيل منذ أن نشأت الدولة . وفى الحق فان هـــرم التعصب الاسرائيلى يستوقف نظر كل من يخالط الاسرائيليين . فأعضاء المعراخ والحرس القديم يتعالون على بقية اليهود . وطبقة التجار وأرباب المال تتعالى على الحرفيين والموظفين والصناع ومن لا يملكون شيئاً . وفى نفس الوقت يحتقر يهود الغرب هؤلاء القادمين من الشرق . وفى النهاية يصل الاضطهاد والتعصب إلى الدرجة الأخيرة من درجات هذا الهرم المأساوى المعقد . حيث ينصب كل مافى النفوس المريضة من حقد على العرب .

وحاول « البواب » جهده كله كى يجد صيغة مشتركة يتفاهم بها مع زملائه العمال . حدثهم طويلا عن متاعب الطبقة العاملة . وشرح لهم صنوف الاستغلال الذى يمسك بخناقهم ، ولكنهم كانوا يقابلون حكمته بالاستهزاء . وكانوا يشيعونه أينما وقع بصرهم عليـــه بكلمات السباب والسخرية ، ولكن ذلك كله لم يفقد ذلك الشاب الجسور حماسه أبداً . بل كان يستفيد إلى أقصى حد من الأفراد الذين كانوا يبادلونه الحـــديث أحيـاناً . وكانت معلوماتهم ثمينة حقاً :

كان مصنع « مختشيم » قد تحول بكامل طاقته إلى الإنتاج الحربى . وكانت منتجاته كلها تأخذ طريقها إلى الترسانة الاسرائيلية ، وكانت هناك قطع ضخمة من الصلب ومجموعات من القضبان المتشابكة تتكدس فوق اللوريات وتوجه إلى خط بارليف وكانت هذه المنتجات التى

استخدمت فى أعمال التكسية وتدعيم الاسقف تستحوذ على أكبر قسط من اهتمام البواب . وعندما كان يصادف أشكالا من الصلب يعجز عن استنتاج الهدف من صنعها كان يرسمها بمهارة ثم يرسل الرسوم إلى القاهرة .

وبسبب جهوده الدائبة لجمع أكبر كمية من المعلومات رفض البواب أن يقيم بالقرب من مصنعه فى بئر سبع . وكان يقطع المسافة كل يوم بين بيته فى غزة ومقر عمله . الامر الذى اقتضى منه أن يستيقظ فى الخامسة صباحاً كل يوم وأن يعود إلى المعسكر وقد مضى جزء من الليل . ولكنه كان يرصد الطريق فى الذهاب والعودة . وكانت لديه صورة دقيقة لكل مايطرأ على المواقع العسكرية من تغيير .

ومن حسن البواب عرفت القاهرة بالضبط آثار حرب الاستنزاف فى نفوس الاسرائيليين . فقد صدرت الأوامر إلى مصنع مختشيم بأن يصنع كمية هائلة من « ابر » ضرب النار . وتتابعت الاوامر على فترات متقاربة ، وفى نفس الوقت ازدادت ضخامة الكميات المطلوبة بطريقة محيرة . ودلت الأوصاف الدقيقة التى قدمها البواب لهذه الابر على أن معظمها من النوع الذى يستخدم فى الأسلحة الثقيلة ، والمدافع المتوسطة ومدافع الدبابات والمدافع الذاتية الحركة ، وبعملية حساب بسيطة للغاية ، أدرك المصريون أن عمر الإبر لا يتفق مع كمية الذخيرة التى كانت تنطلق من المواقع الاسرائيلية ، وكان معنى ذلك بوضوح شديد ، أن الجنود الاسرائيليين يعطلون المدافع

ـ عن طريق الابر — حتى لا يجبرهم القادة على الاشتراك فى القتال ، وكان المعروف وقتئذ ، أن المدفع الذى يطلق قذيفة واحدة من الجانب الشرقى ، يواجه على الفور بنيران كثيفة تسكته إلى الأبد .

كذلك أمد « البواب » المخابرات العامة بمعلومة على أقصى قدر من الخطورة والأهمية ، فقد تواترت بعض الأنباء المتفرقة من إسرائيل عن جهود إسرائيلية مكثفة تهدف إلى تقوية دروع الدبابة « السنتوريون » ، وكان قد أشيع فى وقت سابق أن الإسرائيليين قد نجحوا فى حل المشكلة التى طالما واجهت صانعى الدبابات فى العالم كله ، والتى تتلخص فى إيجاد وسيلة علمية ، للتغلب على المعادلة الصعبة ، التى تربط بين سمك درع الدبابة وقدرتها على السرعة وخفة الحركة .

وأرسل البواب فى الرابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٦٩ ، رسالة سرية إلى العنوان الذى كان يتراسل بواسطته مع مخابراتنا ، وجاء فى الرسالة أن الجيش الاسرائيلى أعاد إلى مصنع « مخنشيم » كمية كبيرة من ألواح الصلب مزودة بمشابك خاصة ، وحدد مقاساتها بدقة ، وذكر أيضاً أن هذه الألواح كانت تحمل آثار ثقوب يبدو أنها من أثر قذائف مضادة للدروع ، وبمراجعة هذه المقاسات المعروفة للدبابة السنتوريون اتضح أنها مطابقة ، ليس للدبابة فحسب ، ولكن لقطورة البنزين التى تربط فى مؤخرتها .

واستنتج المصريون من هذه الرسالة أن الجهود الاسرائيلية قد كللت بالفشل ، وأن دروع السنتوريون قد بقيت على حالها ، ولو أن الاسرائيليين نجحوا فى هذا المضمار ، لكان على المصريين أن يعدلوا هم أيضا فى قوة قذائفهم المضادة للدروع ، ليزيدوا من قدرتها على الاختراق ولم يكن ذلك هين التكاليف .

وأرسل البواب فى رسالة أخرى مايفيد بأن المصنع كلف بإنتاج كاسحات ألغام صغيرة الحجم ، وأوضحت الرسالة مواصفات هذه الكاسحات بمنتهى الدقة ، واتخذت على الفور الاجراءات التى أدت إلى التقليل من فاعليتها إلى حد كبير ، إذ كانت الأوامر تصدر لجماعات بث الألغام ، التى كانت تتسلل خلف خطوط العدو ، بأن تضع الالغام بشكل مزدوج على أجناب الطرق والطرق الفرعية والمدقات الصحراوية ، وبديهى أن المسافة بين كل لغمين متقابلين كانت تزيد قليلا عن طول اسطوانة الكاسحة الصغيرة . . فلم تكن تكسحها .

ولم يقتصر نشاط البواب على مصنع مخشيم وحده ، بل مضى خطوات أبعد .

لقد تذكر عمته المسنة التى لم تتمكن من الرحيل عن « يافا » فكان يذهب لزيارتها بانتظام أيام السبت ، كذلك ذهب إلى تل أبيب ، وقضى أحد أيام عطلته فى ميناء حيفا .

وكان يرسل بيانات المواقع العسكرية ومحطات الرادار بطريقة فذة ، إذ كان يوضح هذه المواقع عـــلى خريطة ذات مقياس رسم

كبير — كلما كان مقياس الرسم كبيرا كلما كانت الخريطة صغيرة — وبعد ذلك يضع ورقة بيضاء فوق الخريطة ويخط نقطة عند كل موقع، وكانت هذه النقط تمثل أعين طيور مختلفة الاحجام والأشكال، يرسمها ببراعة ويلونها بألوان زاهية ثم يرسلها إلى عنوان آخر فى أوربا ومعها بضع كلمات رقيقة، وفى القاهرة كان ضباط المخابرات العامة يعكفون على هذه الرسائل فيعيدون تثبيتها عـــلى خرائط ذات مقياس رسم متماثل ثم يثبتون الدبابيس فى أعين الطيـور المرسومة بعناية، وبذلك كانوا يتعرفون على أماكن هذه المواقع بدقة متناهية.

ولم تكن أهمية «البواب» كجاسوس مدرب ترجع إلى عظم معلوماته وغزارتها فحسب، ولكنها كانت ترجع بالدرجة الأولى إلى أنه اعتبر نموذجا فريدا فى عالم الجاسوسية، فقد حدث فى بعض الأحيان أن مارس الجواسيس أعمالا يدوية، وتحمـــل بعضهم مشاق مهن وضيعة مرهقة، ولكن البواب، الذى مثل دور جامع القمامة باتقان وحذق، كان مثلا يحتذى فى الاخلاص والتفانى.

واعتقد أنى شخصياً، لم أشعر بمثل الأسف الذى شعرت به وأنا أتابع أحداث سقوط البواب فى قبضة الاسرائيليين، فلو لم تتدخل الصدفة، وسوء الحظ، لبقى يمارس الجاسوسية باطمئنان وثقة دون أن يكشفه مخلوق، ولاشك أن سقوطه كان فى حد ذاته حدثا كئيباً.



حديث الوثائق

أثناء نشر عملاء من القاهرة في
جريدتي الأهرام والقبس الكويتية
أصدرت المخابرات الإسرائيلية
بيانا رأيت أن أتعرض له بالتفصيل

لم أكن أرغب في التوقف ، عن متابعة عملاء القاهرة لأني أعرف عن يقين أن جموعا غفيرة من القراء العرب ، يترقبون بكل اللهفة والحماس ، وينتظرون أن يطالعوا يوم الأحد قصة واحد من أبطالنا الذين عملوا في إسرائيل . ولكن التطورات التي برزت على السطح في الأيام الأخيرة اضطرتني إلى هذه الوقفة القصيرة .

فمنذ أن بدأت الأهرام ، والقبس الكويتية ، في نشر « عملاء من القاهرة » والنذر تشير إلى أن تأثيراً يكاد أن يكون خيالياً ، قد أخذ

فى التجمع ، فى العالم العربى بأسره من ناحية ، وفى إسرائيل بأسرها أيضاً من ناحية أخرى . ولست أدعى لنفسى أى دور فى ذلك التأثير الخيالى ، لأن الدور الرئيسى مقصور على هذه المجموعة من الأبطال الحقيقيين . فقد تفانوا فى تأدية واجبهم دون أن يتوقعوا - ولو لحظة واحدة - أن تسلط الأضواء على أشخاصهم أبدا .

ولقد اتضح بجلاء منذ البداية ، أن هدفنا هو الإشادة بجهود مجموعة من العملاء ، استحقوا أن تتحطم من أجل الإشادة بجهودهم كل القواعد ، إلا أننا كنا ندرك بالحساب وحده ، أن هناك نتيجتين رئيسيتين سوف تنجمان عن نشر ذلك الجانب المثير من نشاط مخابراتنا خلال العشرين سنة الماضية :

النتيجة الأولى : أن تساؤلات عديدة سوف تتردد بين القراء ، لأن إزاحة الستار عن بعض أنشطة جهاز المخابرات يؤدى بشكل فورى إلى تعريض أعمال هـــذا الجهاز لضوء ليس مكروها من جانب المتخصصين ، وهو ضوء النقاش العام .

أما النتيجة الثانية والأكبر أهمية فتتعلق بما سوف يحدث على الجانب الآخر من التل ، هناك فى إسرائيل ، حيث الأجهزة الإسرائيلية التى رسمت لنفسها صورة خرافية فى عقول الرأى العام ، والتى استغلت - دون أى قدر من التبصر - الانتصارات العسكرية الإسرائيلية ، تلك الانتصارات التى تعرف الأجهزة الإسرائيلية قبل غيرها ، أنها لم تكن ثمرة لنشاط ضباطها ولكنها محصلة مجموعة من الظروف الطارئة ، أشبه ما تكون بالظروف التى تحكم دوران عجلة « الروليت » !!

ضربة حظ ولكنها تنتهى دائماً باستمرار المقامر فى ممارسة اللعبة إلى أن يتخلى عنه الحظ ويدمر نفسه فى النهاية .

ولقد كان من المتوقع . وبالحساب وحده أيضاً ، حجم هائل للنتيجتين معا ، فالرأى العام العربى ، الذى عاش عدوان سنة ١٩٥٦ ، ومأساة سنة ١٩٦٧ ، كون بطريقته الخاصة ، وبمساعدة أجهزة الدعاية الإسرائيلية ، فكرة خاطئة عن كفاءة مخابراته ، وحتى عندما أفاق على ضربة أكتوبر المذهلة ، فإنه افتقد من يضع أمامه تفاصيل العمل السرى العظيم ، الذى أدى إلى المفاجأة الأسطورية ، ليس بالنسبة للمخابرات الإسرائيلية النشيطة فحسب ، ولكن بالنسبة لكل أجهزة المخابرات فى هذا العالم ، بلا أى استثناء .

وهكذا بقى مدلول أكتوبر ، مجرد استنتاج منطق فى عقل الرأى العـــام .

استنتج العرب إذن أن مخابراتنا نجحت فى حجب الاستعدادات العربية التى تضمنت حشد مجموعة ثلاثة جيوش على الجبهتين المصرية والسورية عن عيون المخابرات الإسرائيلية ، ولكنهم لم يعرفوا ، أن العجز الإسرائيلى كان مساويا بالتقريب للقدرة المصرية ، فعلى حين عجز الإسرائيليون عن التنبؤ بحرب أكتوبر ، كانت معلومات جهاز المخابرات المصرى ، والتقديرات التى توصلت إليها لجنة التقديرات [وهى لجنة تنبثق عن أفرع المخابرات المختلفة] فى سنة ١٩٥٦ . وفى سنة ١٩٦٧ نموذجا رائعا لما يستطيع جهاز المخابرات المتقـــدم أن يقدمه لبلاده ولشعبه من خدمات .

وهكذا كانت تفاصيل «عملاء من القاهرة» . إجابة صريحة مدعومة بالوثائق على كل الدعاوى الإسرائيلية التى استمرت عشرين سنة . ولعل هذا هو السبب . فى تلك الضجة التى ارتفعت من حولنا . منذ الأسبوع الأول وذلك القدر الضخم من النقاش العام .

أما بالنسبة لإسرائيل فلم تكن الأمور على هذا القدر من البهجة لأن الرأى العام الإسرائيلى ، الذى أتخم بالبرامج الدعائية . والذى اقتنع بقدرة مخابراته حتى اللحظات الأولى لحرب أكتوبر . كان فى موقف متردد بين الحيرة والتشكك . قيل له مثلا أن المخابرات الإسرائيلية كانت لديها المعلومات ولكنها أخطأت فى تحليلها . وقيل له أيضاً . أن « التقصير » لم يحدث من جانب المخابرات ولكنه يقع على عاتق الجيش . ثم جاءت لجنة أجرانات . وأطاحت بمدير جهاز المخابرات ومعه تسعة من كبار ضباطه - هم بالطبع رؤساء الإدارات - ولكن أحدا لم يجسر على الاعتراف بالحقيقة مباشرة .

وبقدر حرصنا على أن ننشر « عملاء من القاهرة » على الرأى العام العربى اجتهدنا إلى أقصى حد فى إيصال تفاصيلها إلى الرأى العام الإسرائيلى . وكان هذا الجهد المزدوج . هو السر فى اختيار كل من الأهرام والقبس . لكى يكونا وسيلة النشر . فالأهرام - بكل ما لديه من وزن فى عالم الصحافة - يوزع فى العالم العربى ، والقارة الأوروبية وفى الأمريكتين . الأمر الذى يؤدى حتما إلى اطلاع اليهود الموجودين خارج إسرائيل ، والذين يقرأون العربية . على ما نود أن نطلعهم

عليه . وكان عليهم بعد ذلك أن ينقلوا ما قرأوه فى الأهرام . إلى أقاربهم . وأصدقائهم فى إسرائيل .

وكان للقبس تأثيرها أيضاً . ففضلا عن أنها جريدة واسعة الانتشار فإنها تصدر فى الكويت ، وتوزع فى كل المنطقة العربية حيث يقوم أكبر تجمع فلسطينى ، ولأن ثمـــة قنوات اتصال بين الفلسطينيين وأقاربهم المقيمين فى إسرائيـــل كان من المتوقع أن ينتقل تأثير « عملاء من القاهرة » عبر هذه القنوات إلى الشعب الإسرائيلى . وكان علينا أن نراقب بمنتهى اليقظة ، ما يحدث هناك .

كان رد الفعل فى أوساط الرأى العام العربى والرأى العام الإسرائيلى محسوبا منذ البداية . وكان رد الفعل فى مكاتب المخابرات الإسرائيلية نفسها محسوبا هو الآخر بنفس الدقة . فقد كان واضحا أنهم هناك سوف يتلقون الصدمة قبل غيرهم . ولأنهم تعودوا خلال العشرين سنة الأخيرة على نمط ثابت من التفكير والسلوك . فلابد أن يفكروا فى حيلة جديدة . وما أن يستقر رأيهم على أفضل الحيل التى فى جعبتهم حتى يواجهوا قراراً صعباً لابد أن يتخذوه وسط جو من الشعور بالافتضاح . وكان موقفهم محيرا وقاسيا حقا .

ولم يكن الموقف يحتمل أكثر من قرارين لا ثالث لهما :

* أن يلوذوا بالصمت . على أن يواجهوا بعد ذلك شعبهم الذى خدعوه قبل غيره . وكانوا يعرفون أن ما نشر حتى الآن ليس سوى جزء هين مما سوف يذاع على العالم مستقبلا . وفى نفس الوقت كان

عليهم أن يبرروا للعالم كله ذلك الإغفال التام الذى دأبوا عليه فى كل مرة اكتشفوا فيها أحـــد عملائنا ، وهم الذين تباهوا بأعلى صوت ، بالديمقراطية والحرية ، وعلى الأخص حرية الـكلمة ، التى يزعمون أنها تسود إسرائيل المتحضرة .

أو أن يردوا — أى رد — على ما تذيعه القاهرة ، مع ملاحظة أن هذا الرد سوف يؤدى حتما إلى مزيد من الانتشار للوقائع التى نشرناها ، وسوف يؤدى أيضاً إلى أن تتسع فجوة عدم الثقة ، التى بدأت فى السادس من أكتوبر ، بين الشعب الإسرائيلى وبين حكومته ومؤسساتها العسكرية ثم جهاز المخابرات فى نهاية المطاف . وأغلب الظن ، أننا قد نجحنا بالفعل فى تصدير المتاعب التى كنا نعانى منها قبل أكتوبر ، دفعة واحدة ، إلى الجانب الإسرائيلى .

وكان الرأى هنا فى القاهرة ، أن المخابرات الإسرائيلية سوف تتخذ القرار الثانى ، ولـكن كيف تقدم عليه ؟ ! وبأى أسلوب سوف تنفذه ؟ ! وما هو التوقيت المحتمل للتنفيذ ؟ !

طرحت الأسئلة الثلاثة للنقاش قبل أن تتسلم الأهرام والقبس أول حلقة فى السلسلة ، واستقر الرأى على أن التخبط سوف يتمخض عن إجراء خاطىء يحقق أهداف القاهرة تماماً ، ولأن الصمت — فى مثل هذه الحالات — هو القرار الأمثل ، طبقاً لقواعد علم المخابرات ، فإنهم سوف يقدمون على القرار الثانى ، إذاعة رد يصاغ بعناية بصرف النظر عن العواقب الوخيمة التى ستنجم عن هذا الرد . أما الأسلوب

الذى ستتبعه المخابرات الإسرائيلية فى تنفيذ قرارها ، فكان استنتاجه سهلا إلى أقصى حد ، ووضع فى الاعتبار أثناء النقاش — وقد اشترك فى النقاش أربعة من المتخصصين الذين يعرفون نوعية ضباط المخابرات فى إسرائيل — ثلاثة عوامل أساسية :

(ا) قدرة الإسرائيليين على التقليد التى أثمرت رغم كل شىء نوعاً من الحضارة المقلدة .

(ب) شخصيات رؤساء جهاز المخابرات الإسرائيلى الحاليين ، وليس سراً أن مخابراتنا تحتفظ بمعلومات دقيقة عن هؤلاء الرؤساء ، منذ عهد بعيد .

(ج) حجم انتشار كتاباتنا هناك ، وهو ما سوف تحدده تقارير استطلاع الرأى الإسرائيلية ، لأن هـذا الحجم سوف يستلزم أسلوباً يحقق حجماً مماثلا فى الاتجاه المضاد .

وبدراسة هذه العوامل مجتمعة ، أصبح مؤكداً أن المخابرات الإسرائيلية سوف تذيع ردها عن طريق الصحف ، وأن الاختيار سوف يقع على صحيفتين ، إحداهما أوسع الصحف الإسرائيلية انتشاراً . وهى « معاريف » والثانية أكثر الصحف تبنياً لمشاكل الجماهير فى إسرائيل ، وهى « دافار » . ولم يبق بعد ذلك إلا الإجابة على السؤال الثالث : ما هو التوقيت المحتمل للتنفيذ ؟ !

وكانت الإجابة :

سوف يلزمهم أسبوع لكى يفيقوا من الصدمة ، وسوف

يترددون بين الحيرة والتخبط أسبوعا ثانياً ، ثم يقررون أن يردوا علنا ويرسلون ردهم إلى الصحيفتين ، وعلى ذلك فإننا نتوقع أن ينشر هذا الرد بعد ثلاثة أسابيع من النشر ، وقد حدث ذلك كله بالضبط .

إن اللعبة تتخذ مساراً باهراً بشكل يدعو إلى الدهشة ، فقد قيل لى منذ أن بدأت النشر ، ليس هناك ما يدعو إلى متابعة الإذاعات الإسرائيلية ، بل علينا أن نراقب الصحف فقط ، وهكذا أصبحت أتلقى صباح كل يوم ، نسخة واحدة من كل جريدة تصدر فى إسرائيل ، والغريب أن الإسرائيليين أيضاً كانوا يوجهون عنايتهم إلى صحفنا ، وعلى الأخص أهرام الأحد .

وكان أول نذير لرد الفعل لدى مخابرات اسرائيل النشيطة — تقرير جاء من شتوتجارت فى ألمانيا — وتاريخ هذا التقرير الجمعة ٢٨ مارس ١٩٧٥ ، بعد نشر أول قصة بخمسة أيام ، ويقول التقرير أن أحد العملاء الإسرائيليين ، دخل إلى محطة السكك الحديدية فى شتوتجارت ، واتجه إلى «الكيوسك» وهو مكان بيع الجرائد والكتب هناك ، وألح فى طلب صحيفة واحدة بالتحديد : أهرام الأحد .

وتوالت التقارير بعد ذلك بصفة منتظمة ، وأصبح معروفا ، أن الإسرائيليين يحصلون على الأهرام ، وأن عدة نسخ منه تطير إلى اسرائيل بأقصى سرعة ، وعرف فيما عرف أن المخابرات الإسرائيلية

تضمن ملخص المعلومات الأسبوعى نصا كاملا لما ينشر فى الأهرام ، وهذا هو السر فى أن ملخص المعلومات الذى يوزع بمنتهى السرية على أفرع المخابرات المختلفة ، يتأخر الآن عن موعده الذى استمر لمدة عشر سنوات ، فأصبح ميعاد توزيعـــه الخميس من كل أسبوع بدلا من الاثنين !

وبانتهاء الأسابيع الثلاثة التى حددها تقدير مخابراتنا ، كان رد الفعل قد وصل إلى الذروة ، وكانت قصة اسرائيل بيير وعشيقته قد أصبحت حديث الشارع الإسرائيلى فى كل مكان ، وفى الثالث عشر من أبريل بعد واحد وعشرين يوما بالضبط من تاريخ نشر أول حلقة من « عملاء من القاهرة » سلمت المخابرات الإسرائيلية لصحيفتى معاريف ودافار بيانا حرصوا على أن يذاع مضمونه بصيغة مختلفة فى كل من الصحيفتين. وفى الخامس عشر من نفس الشهر ، أى بعد يومين ، وصلت إلى يدى نسخة من كل منهما ، ولدهشتى الشديدة وجدت دائرة حمراء تحيط بالبيان الذى أذيع فجأة .

وقبل أن نسرد ما جاء فى الصحيفتين نود أن نسجل ملاحظتين نعتقد أن لهما مدلولا بالغ الخطورة ، فقد لاحظنا أن « معاريف » نشرت الخبر فى ذيل صفحتها الثانيـــة . أما « دافار » فانتهزت الفرصة ونشرت نصا مختصرا للموضوع ، وهكذا قوبلت كلمات المخابرات الإسرائيلية بالازدراء من الصحيفة الأولى ، واستخدمت نفس الكلمات لإذاعة وجهة نظرنا بطريق غير مباشر فى الصحيفة الثانية ! !

ولننتقل الآن إلى مناقشة الموضوع :

تحت عنوان : ايزر هاريل يقول :

اسرائيل بيير لم يكن عميلا مصريا .

تقول « معاريف » :

رد ا. هاريل المسئول السابق عن هيئات الأمن هذا الصباح على ما نشرته مصر ، بأن دكتور اسرائيل بيير عمل في حيفا عميلا للمخابرات المصرية وبمعاونة عشيقته ديانا ذهابى بأن هذا الكلام لا أساس له من الصحة .

وقد حكم على دكتور اسرائيل بيير الذى عمل من بين ما قام به ، كمستشار عسكرى لرئيس الحكومة ووزير الدفاع دافيد بن جوريون بالسجن بتهمة التجسس لصالح الاتحاد السوفيتى وقد توفى فى السجن ، وايزر هاريل هو الذى شك فيه وقدمه للمحاكمة ، والآن زعم المصريون فى اطار سلسلة مقالات عن عملاء المخابرات المصرية تنشر فى صحيفة الأهرام القاهرية أن اسرائيل بيير قد عمل فى الحقيقة من أجلهم ، وأن عشيقته ديانا ذهابى عملت كعميلة لهم . وتروى قصص ألف ليلة وليلة المصرية أن السيدة / ديانا قدمت نفسها فى يناير سنة ١٩٥٨ لإحدى السفارات المصرية فى أوربا كعميلة وسيطة بين اسرائيل بيير وبين المصريين ، وقد نقلت بالطائرة إلى القاهرة وسلمت وثائق كانت لدى « بيير » إلى المخابرات المصرية .

وهذا الصباح مضى هاريل فى رده على أسئلة «مراسلنا» II عن الرواية المصرية الجديدة قائلا أنها رواية لا أساس لها من الصحة . وقد أوضح ايزر هاريل أن المنظمات التخريبية تعرض أى كارثة أو حادثة فى فى اسرائيل على أنها أعمال من صنع يديها ، كذلك يتوج المصريون أنفسهم بتيجان ليست لهم . إلى جانب ذلك أن أجهزة التجسس السوفيتية تعودت تسليم المخابرات المصرية بمعلومات استراتيجية فعالة فى اطار التعاون بينهم ضد اسرائيل .

ومن المعروف أنه قد تم التحقيق مع اسرائيل بيير فى حينه ليس على أنه خدم المخابرات السوفيتيه بل أيضاً كما لو كان على علاقة بالعرب، ولكن قد تبين أنه ليس لذلك أى أساس، وكذلك أيضاً تم التحقيق مع عشيقته « ذماى » فى نفس تلك الفترة حول امكانات كهذه ، وقد تبين أنه لم يكن لها أى صلة بنشاطات التجسس التى كان يقوم بها اسرائيل بيير ، وكان معروفا أيضا فى خلال تلك الفترة أن للسيدة / ذماى عدا صداقتها باسرائيل بيير ، كان لها صديق عربى ولكن كانت علاقة رومانتيكية فقط دون أى صلة بنشاطات سرية .

أما «دافار» فنشرت الحكاية تحت عنوان : دوائر الأمن ترفض المزاعم المصرية التى تقول أن اسرائيل بيير تجسس لصالح القاهرة .

بقلم : مراسل دافار للشئون العربية : ترفض دوائر الأمن فى اسرائيل الإدعاء الذى يروجه المصريون الآن بأن المرحوم اسرائيل بيير قام بالتجسس لصالح المخابرات المصرية وليس السوفيت . وحسب رأى

هذه الدوائر — وهذا أيضا رأى ايزر هاريل الذى كان آنذاك رئيسا للموساد [الموساد هى المخابرات العـــامة الإسرائيلية] فإنه لا يوجد سبب لهذا الادعاء المصرى وهو نابع من خيال شرقى أو محاولة واضحة للحرب النفسية .

والادعاءات المصرية نشرت فى هذه الأيام بتوسع على صفحتين فى صحيفة الأهرام فى سلسلة مقالات عن مآثر المخابرات المصرية .

وهذه خلاصة الرواية المصرية :

عشيقة بيير ديانا ذهابى عرضت على إحدى السفارات المصرية فى أوروبا فى شهر يناير سنة ١٩٥٨ أن تعمل كجاسوسة ، وكان هذا بعد أن تم إبعاد بيير عن وزارة الدفاع وشعر بخيبة أمل ، وفى اليوم التالى تم نقلها إلى القاهرة لمقابلة رئيس المخابرات العامة واثنين من مساعديه رأوا فيها « هبة من السماء » ووافقوا على أن يدفعوا لها مبالغ كبيرة جداً .

ولأجل إجراء اتصال معها تم استخدام فتاتين شقيقتين الكبرى من أم فرنسية والثانية مصرية خالصة، الأخت الكبرى عملت فى مكتبة معروفة فى أوربا ، واستخدمت كصندوق بريد فى حـــين حضور الإسرائيلية للتظاهر بشراء كتب . والأخت الصغيرة التى حصلت على وظيفة فى شركة طيران حرصت على أن تنقل المعلومات للقاهرة وكذلك تدفق النقود من هناك [لاحظ ركاكة الأسلوب] والمخابرات المصرية

هكذا تقول الأهرام — خشيت أن يفتضح أمر بيير وحبيبته بسبب المال الكثير الذى كان موضوعا تحت تصرفها . ومن أجل ذلك اتفق على أن يقوم بيير بإعادة طبع كتابه عن مشاكل الأمن الاسرائيلية وستحرص المخابرات المصرية على شراء كل النسخ من الأسواق وبذلك يكون لدى بيير المبرر لوجود المال لديه .

ويدعى المصريون بأنهم حصلوا من حبيبة بيير على ٤٠٠ وثيقة هامة للغاية شملت من بين ما شملت تنظيم وزارة الدفاع وخطط تسليح جيش الدفاع الاسرائيلى ، وأن مصر علمت فى عام ١٩٦٠ مثلا مناطق الدفاع على الحدود ، وفى قطاع غزة ، وقد أدى هذا الأمر إلى ازدياد نشاط الكوماندوز المصريين فى إسرائيل .

كذلك تدعى الأهرام بأنه ابتداء من أبريل سنة ١٩٦٠ قامت ديانا ذهابى بتنفيذ مهمة أخرى بنجاح — ادخال أفكار على المقالات التى كتبها بيير فى صحيفة «ها آرتس» بهدف تليين النظرة إلى «ناصر» وإضعاف الارتباط بقيام اسرائيل بتمدادها الحالى ، ويضيف الكاتب المصرى أن المخابرات المصرية اقنعت ديانا بعدم ترك «بيير» بعد أن أصيب بالمرض وتدهورت حالته المعنوية وبقيت واقفة إلى جانبه .

ويقول الادعاء المصرى أنها احتفظت ببعض الوثائق لديها لمدة عشرة أيام بعد القبض عليه ، ويدعى الصحفى المصرى بأن بيير كذب

على الذين حققوا معه وكذب على المحكمة عندما قال أنه عمل لصالح السوفيت ، وجدير بالذكر أن بيير توفى فى سجنه فى مايو ١٩٦٢ .

هذا هو نص ما نشرته الصحيفتان معاريف ودافار، وقبل أن أتناوله ما تضمنته السطور من وقائع ، نود أن نلفت النظر إلى أن الإسرائيليين خصوا حادثة إسرائيل بيير باهتمام. وحادثة بيير كانت الثالثة فى سياق سلسلة عملاء من القاهرة وقد نشرت يوم الأحد ٦ أبريل، ولا شك أن التصدى لها دون الإشارة للقضيتين السابقتين عليها - الأولى قضية موردخاى كيدار [٣/٢٣] والثانية كانت أولريتش شنيفت [٣/٣٠] - لا شك أن ذلك يبدو فى رأينا ، كقراءة سفر الخروج قبل سفر التكوين وهذه مسألة مضحكة للغاية . لقد صدر هذا البيان فى الرابع عشر من أبريل كما ذكرنا آنفا ، وتسبب فى تأخير تسليم التحقيقات التالية لكل من الأهرام والقبس ، إذ بينما كنت أود أن أنشر هذا التحليل ، والذى استحق عنوان حديث الوثائق ، يوم الأحد الموافق ٢٠ أبريل ، كانت هناك وجهة نظر تقول بأن تستمر السلسلة . خصوصا وأن هذا الموعد كان مرتبا لمصطفى الجردلى ، وقد نشرت قصته على أسبوعين ولم يكن من اللائق أن يتأخر نشر موضوع مصطفى الجردلى ثم حسن البواب من أجل خاطر المخابرات الاسرائيلية ..

ويستطيع القارىء أن يستعيد ما نشرته الأهرام ، وهو مطابق بالنص لما تنشره القبس ، ثم يقارنه بما جاء فى الصحيفتين الاسرائيليتين ، ليكتشف أن بيان المخابرات الاسرائيلية - بصرف النظر عما فيه من

مغالطات ـ سوف نفتقدها فيما بعد ، قد اعترف اعترافا صريحا بأن الدكتور اسرائيل بيير مستشار الأمن القومى فى الحكومة الاسرائيلية وعشيقته السيدة / ديانا ذمانى قد حقق معهما بتهمة التجسس والاتصال بأطراف عربية ، وأسفر التحقيق عن محاكمة بيير وادانته وهذا هو ما كشفنا النقاب عنه تماماً .

فقد اعترف الاسرائيليون إذن بجوهر قصتنا عن الدكتور اسرائيل بيير وعشيقته السيدة « ديانا ذمانى » إذ ورد فى البيان الذى نشرته الصحيفتان الاسرائيليتان معاريف ودافار ، أن التحقيق الذى جرى مع كل منهما ، تناول « الاتصال بأطراف عربية » وأن السيدة « ديانا ذمانى » كانت تربطها علاقة بأحد العرب ، وإن كانت هذه العلاقة رومانتيكية وليس لها صلة بأية نشاطات سرية .

لقد عثرنا أخيراً على لمسة رومانتيكية وسط جو مفعم بالميلودراما ، ولكننا نسأل :

ــ كيف غفل ضباط الاستجواب الإسرائيليون عن اكتشاف حقيقة الصلة بين السيدة «ديانا ذمانى» وبين أحد العرب ، ولم لم يذكر البيان الإسرائيلى اسم هذا العربى ، وأين هو الآن ؟

ــ هل كانوا يتوقعون أن يجدوا فى حوزة السيدة «ديانا ذمانى» أى دليل بعد أن تركوها مطلقة السراح لمدة عشرة أيام بعد القبض على الدكتور اسرائيل بيير ؟

— وهل كان فى وسعهم أن يحصلوا منها على اعتراف مفصل ، وليس لديهم أدلة ضدها إلا إذا كانت ترغب أن تسلمهم عنقها طواعية وهى فى كامل قواها العقلية ؟

— لماذا لم يعلن الإسرائيليون ، وقت القبض على الدكتور « اسرائيل بيير » أن التحقيق الذى واجهه وبعده عشيقته «ديانا ذهابى» قد شمل تهمة اتصالهما بأطراف عربية خصوصا بعد أن أسفر هذا التحقيق عن تقديم الدكتور بيير المحاكمة ، وبعد أن انتهت المحاكمة بإصدار حكم بالغ القسوة بسجنه لمدة خمس عشرة سنة ، وإن كانت السيدة « ديانا ذهابى » قد تمكنت من الإفلات .

إننا أمام حادثة طريفة بالفعل ، فهناك سيدة كانت تقوم بأخطر دور فى عملية تجسس متكاملة ، وواجهت هـــذه السيدة استجوابا دقيقاً أمام ضباط المخابرات الإسرائيليين ، ومع ذلك تمكنت من خداع هؤلاء الضباط وأفلتت من قبضتهم ، أليس ذلك دليلا على براعة المصريين الذين يدربون جواسيسهم عـــلى تأمين أنفسهم ومواجهة مراحل الاستجواب ، ويعتبرون هذه المسألة بالغة الأهمية .

بعد ذلك يتوجب علينا أن نفنـــد المغالطات التى تضمنها بيان المخابرات الإسرائيلية وأولها ما كان متعلقاً بموضوع البيان نفسه ، فقد تناولنا فى عملاء من القاهرة ستة جواسيس حتى الآن وهؤلاء الجواسيس

كانوا فى وقت ما ، فى قبضة المخابرات الإسرائيلية ، لقد حوكموا فى اسرائيل وأدينوا بالتجسس لصالح المخابرات المصرية ، وصدر ضدهم أحكام بالسجن لمدد مختلفة ، وبعضهم يعيشون الآن فى مصر والبعض الآخر فى اسرائيل نفسها ، بل وسبق أن نشرت الصحف الإسرائيلية ووكالات الأنباء بعض قضاياهم ، ولكننا نلاحظ أن الإسرائيليين لم يعقبوا إلا على قضية الدكتور بيير . فهل معنى هذا أنهم لا ينكرون بقية القضايا الأخرى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يبدو منطقيا القول بأن البيان الإسرائيلى جاء مؤيدا لنا من حيث قصد به أن يكون نفيا لكل ما نشرناه .

هذه نقطة هامة للغاية.. أما إذا فحصنا التفاصيل فسوف نكتشف أن الإسرائيليين عمدوا إلى مغالطة واضحة، إذ قالوا على لساننا أن الكتاب الذى اشترته المخابرات المصرية هو كتاب « مشاكل الأمن » والحقيقة أننا ذكرنا فى هذا الموضع كتاب « الشرق الأوسط بين الشرق والغرب » إن الكتابين من مؤلفات بيير ، ولا شك أن الهدف من هذا الخلط المتعمد هو الإيحاء للرأى العام الإسرائيلى بعدم صحة القضية كلها، فكتاب «مشاكل الأمن» طبع فى اسرائيل وتولت نشره دار «عم عوفيد» ويعرف الإسرائيليون أنه لم يلق أى رواج ، ولم يطبع سوى طبعة واحدة. أما كتاب «الشرق الأوسط بين الشرق والعرب» فقد طبع فى ألمانيا ، ومن المقطوع به أن هذا الخلط لا يمكن أن يكون بسبب سوء الترجمة .

إننا نستخدم كلمة مغالطات ولكن نظرة مدققة أخرى سوف تكشف لنا عما يمكن وصفه بالاختلاق ، وهذا الاختلاق يتضح من الفقرة التالية التي نشرتها صحيفة دافار : ويدعي الصحفي المصري أن بيير كذب على الذين حققوا معه وكذب على المحكمة عندما قال أنه عمل لصالح السوفيت .

هذا هو نص ما أوردته دافار ولن يجد القارىء أي عناء في التأكد من حقيقة أن الصحفي المصري — وهو شخصي المتواضع — لم يذكر حرفا واحداً من هذه الفقرة .

لقد عمد الاسرائيليون إلى صياغة بيانهم بطريقة لا تلقى استحساناً من جانبنا ، خصوصا في الفقرة التي أرادوا بها أن يردوا على تأكيدنا بأن المخابرات المصرية تبذل جهدها دائماً من أجل إطلاق سراح عملائها وإحضارهم إلى القاهرة ، هذا التأكيد الذي حرصنا على إبرازه في كل قصة من القصص التي نشرت ، فقد قالوا بالحرف : إن المصريين يترجون أنفسهم بتيجان ليست لهم . ومادامت المسألة تتعلق بالتيجان هذه المرة فإننا نتعهد علنا بأن ننشر في نهاية «عملاء من القاهرة» مجموعة من صور هؤلاء العملاء في قلب القاهرة ، ومن المؤسف حقا أن المرحوم الدكتور بيير لن يظهر في هذه الصور ليس لسبب سوى أنه توفي في سجن شطا بعد قرابة سنة من الحكم عليه .

لماذا الدكتور بيير فقط ؟

أن من حقنا أن نسأل: ماهو رأى المخابرات الإسرائيلية في عملاء

القاهرة الآخرين ، إننا لا نشتهي التقاليل من شأن ضباط المخابرات الإسرائيليين ، ربما لأننا لا نهوى تشريح الجثث . ولكن هناك بعض الاستفسارات التي تنتظر إيضاحا . فشــلا يعيش موردخاى كيدار والكسندر بوابن في إسرائيل الآن بما يجعل بمقدورهم توضيح موقفهم علنا ، وفي نفس الوقت لم يصدر عن الحكومة الإسرائيلية أي نفي رسمي لما ذكرناه من أن هذين الرجلين قد تعرضا للمحاكمة والسجن بتهمة التجسس لحساب المصريين .

وماذا بشأن أولريتش شنيفت ؟

أن الإسرائيليين يواجهون مأزقا عصيبا سقطوا فيه باختيارهم ، لأنهم إذا ما أنكروا أنه كان يتجسس لحسابنا ، فلابد أن يقدموا للعالم مبررا مقبولا لواقعة القبض عليه وسجنه وخصوصا أنه ألماني . وإلا فإن كل سائح يفكر في زيادة إسرائيل لابد أن يضع في حسابه احتمال قضاء بضع سنوات في السجن ، لقد قبض على شنيفت مرتين في اسرائيل ، المرة الأولى باسم جبرائيل زودمان والثانية باسم ديفيد وايزنبرج . ولاشك أن أي محل من محلات البقالة أو ما شابه ذلك يحتفظ بسجلات لزبائنه الدائمين وعلى الإسرائيليين أن يبحثوا في ملفاتهم قبل التورط في بيان جديد .

إن لدينا قائمة طويلة من الجواسيس ، فهناك أيضا مصطفى الجردلي

وحسن البواب وغيرهما ، أين هؤلاء الرجال ؟ ولمـــاذا لايتصدى الإسرائيليون لتكذيب ما نشرناه عنهما . وحتى لو حصرنا المسألة فى قضية الدكتور بيير وحدها ، فإن نفس الاستفسارات سوف تظل قائمة: أين السيدة «ديانا ذهابى»؟ لقد كان لبيير عدد كبير من العشيقات، ذكرنا منهن « ديانا ذهابى » وواحدة أخرى تدعى « أورا » والسيدة ديانا هى المحور الرئيسى الذى ترتكز عليه القضية كلها ، فقد كانت همزة الوصل بين الدكتور بيير وبين مخابراتنا . هى التى قدمت نفسها لسفارتنا . وهى التى تسلمت جرعات النقود وهى التى سلمت الوثائق .

وإلى أن يعثر الإسرائيليون على السيدة ديانا ، عليهم أن يبتعدوا عن تكذيب ما نكتب . بل يجب أن يكتفوا بإعادة نشره فقط . وحتى لا يبددوا جهودهم فيما لا طائل من ورائه رأيت أن أقدم لهم معلومة صغيرة وبلا مقابل وهذه المعلومة تتلخص فى أنهم لن يعثروا أبداً على هذه السيدة . كما أننى أجزم بشكل علنى بأن ديانا ذهابى أبعد ما تكون عن ذراع مخابرات اسرائيل التى طالمـــا وصفوها بأنها مفرطة فى الطول .

إن المشكلة تكمن فى أن هناك من يتصدى لتكذيبنا ، لذلك تكتنف التعقيدات الأمور بشكل يتصاعد باطراد ، فقد تمخضت محاولة تكذيبنا هذه عن عواقب وخيمة إذ أعطت المخابرات الإسرائيلية ذريعة لصحيفتى معاريف ودافار أدت إلى نشر كتاباتنا على الشعب

א. הראל: ישראל בר לא היה סוכן מצרי

[illegible] בר [illegible]", כך [illegible] הביטחון [illegible] שהיה אלמוני, [illegible] איסר הראל, [illegible] הסיפור המצרי [illegible] ישראל בר [illegible] של [illegible] המצרי ובפרט אהובתו דיאנה זהבי.

ד"ר ישראל בר מי שהיה בין השאר כיועץ צבאי של ראש הממשלה ושר הביטחון דוד בן־גוריון נשפט בשעתו למאסר באשמת ריגול לטובת ברה"מ, ונפטר בכלא. איסר הראל הוא שחשד בו וחשף אותו והביאו לדין.

זאת, במסגרת סידרת כתבות על כשלי המודיעין הישראלי המתפרסמת ב"אל אהרם" הקהירי, טוענים המצרים כי ישראל בר בעצם פעל לטובתם ולא לטובת הסובייטים, וכי אהובתו דיאנה זהבי שימשה סוכנת שלהם. סיפורי "אלף לילה ולילה" המצריים מספרים כאילו הגברת זהבי הציגה עצמה בינואר 1958 באזני השגרירות המצרית בפריס כסוכנת־מתווכת בין בר לבין המצרים, הוטסה כביכול לקהיר, ומסרה מסמכים שהיו בידי בר למודיעין המצרי.

אתמול, בתשובה לשאלות כתבנו, דחה מר הראל בביטול גירסה מצרית חדשה זאת כ"הזנת שחר". הסביר מר הראל: "כשם שארגוני התבלה מצרים כמעשיהם כל אסון אשר תאתה בישראל — כך המצרים קושרים לראשם כתרים שאינם שלהם. יחד עם זאת יש לזכור כי שרותי הביון הסובייטיים נהגו למסור ידיעות [illegible] האופרטיביים למצרים במסגרת שיתוף הפעולה ביניהם נגד ישראל".

נודע עוד כי בשעתו נחקר בר לא רק על כך ששירת את הסובייטים — אלא על אפשרות שהוא היה קשור גם למצרים. אולם התברר שאין לכך כל יסוד.

גם אהובתו זהבי נחקרה [illegible] תשובה בחשד לאפשרות [illegible], והתברר מעל לכל ספק [illegible] עם פעולות הריגול של בר, היא ידעה כי [illegible] ישראל בר היה [illegible] זהבי בר [illegible] — אולם [illegible] בלבד, ללא כל קשר לפעילות חשאית.

صحيفة معاريف الصادرة في ١٤/٤/١٩٧٥

חוגים בטחוניים דוחים הסיפור המצרי שישראל בר ריגל לטובת קאהיר

מאת אהרן יעקבי,
סופר „דבר" לעניינים ערביים

חוגים בטחוניים בישראל דוחים את הטענה שמשמיעים עתה המצרים כאילו עסק ישראל בר המנוח בריגול לטובת הביון בקאהיר ולא לטובת הסובייטים. לדעת החוגים האלה — וזו גם דעתו של איסר הראל שהיה אז ראש „המוסד" — אין אחיזה לטענה המצרית החדשה ומקורה בדמיון מזרחי, או בנסיון שקוף של לוחמה פסיכולוגית.

הטענות המצריות התפרסמו בימים אלה בהרחבה על פני שני עמודים שלמים של „אל אהראם" בכסגרת סדרת כתבות על כשלי המודיעין המצרי.

וזו תמצית הגירסה המצרית:

אהובתו של בר, דיאנה זהבי, הדיקה בינואר 1958, באחת השגרירויות המצריות באירופה, לפעול כמרגלת. היה זה לאחר שרגלי בר נדחקו במשרד הבטחון והוא חש תיסכול. היא הוסיפה לבחרת היום לקאהיר לפגישה עם ראש המודיעין הכללי ושנים מעוזריו שראו בה „בתה מזהבים" והסכימו לשלם לה סכומים גבוהים מאוד. לצורך קיום קשר עכה הופעלו שתי אחיות ילפתיצה — הגדולה בת לאם צרפתיה והשניה מצריה טהורה. האחות הגדולה עבדה בספריה ידועה באירופה, ששימשה כ„תיבת דואר" בעת [illegible] באה, כביכול, לקנות ספרים ואחותה הצעירה, שקיבלה משרה בחברת תעופה, דאגה להעביר את החיבור לקאהיר וכן להזרים את הכספים כמש.

המודיעין המצרי — כך מספר „אל אהראם" — חשש שבר ואהובתו ינקרו עיניים בכסף הרב שהיה ברשותם ולכן הוסכם שבר ידאג להדפיס מחדש את ספרו על בעיות הבטחון של ישראל ואילו המודיעין המצרי ידאג, כביכול, לקנות את כל העותקים מן השווקים וכך יהיה לבר הסבר לכסף.

בסך הכל, טוענים המצרים, קיבלו מידי אהובתו של בר 400 מסמכים חשובים ביותר שכללו, בין היתר, כבנה ממשרד הבטחון, תכניות חימוש של צה"ל ועוד ש„ב־1960 ידעה מצרים על כל אזורי הבטחון בגבולות ישראל והדבר איפשר הגברת פעולות הקומאנדו המצרי בישראל".

כבו כן טוען „אל אהראם", כי החל באפריל 1960 ביצעה דיאנה זהבי משימה נוספת בהצלחה — החדרת רעיונות למאמרים שכתב בר ב„הארץ" במגמה של ריכוך היחס לנאצר והחלשת הדבקות בקיום ישראל במתכונתה הנוכחית.

ועוד, מוסיף הכתב המצרי ומספר, המודיעין המצרי הניא את דיאנה מלעזוב את בר כאשר לקה במחלה ומצב רוחו נפגע. היא נשארה לצידו ולפי הטענה המצרית אף שרפה כמה מסמכים ברשותה — עשרה ימים לאחר שנעצר. העתונאי המצרי טוען כי בר שיקר בפני חוקריו ובפני בית הדין כאשר סיפר שפעל לטובת הסובייטים.

כזכור, נפטר בר בכלא ב־מאי 1962.

صحيفة دافار الصادرة في ١٤/٤/١٩٧٥

"המידע שמסרה אהובתו של ד"ר ישראל בר למצרים היה שווה כל סכום שבעולם"

"אל אהראם" מספר, כיצד הדמיון הטובה עליו, כיצד קיבל המודיעין המצרי כ-400 מיסמכים על צה"ל ★ מתאר את דיאנה זהבי כ"מתנה משמים" וכאשה ש"אדם רגיל אינו מסוגל לעמוד בפניה"

מצרים "ממציאות" את המרגל הרוסי

...ة معاريف الصادرة فى ١٩٧٥/٤/١٧ ؛ وقد نشرت بالإضافة إلى صورة د. اسرائيل بير وعشيقته ديان ذهابى نبذة عن المؤلف

وثيقة تتضمن التفاصيل المسموح بنشرها عن سلاح الطيران الاسرائيلي قدمتها ديانا ذهابي للقاهرة

الإسرائيلي، وقد نشرت دافار بيان المخابرات الإسرائيلية ثم استطردت إلى القصة ذاتها فنشرت لها نصا مختصراً، وقد قلنا فيما سبق نشره أننا أثرنا تأثيراً رهيبا فى الرأى العام الإسرائيلي وأن هذا التأثير هو الضغط الذى دفع المخابرات الإسرائيلية إلى نشر بياناتها ذاك ولعل هذا القول يحوى شيئا من الزهو . والحقيقة أن الزهو هنا يبدو منطقيا لأن ما حدث بعد ذلك أثبت صدق نظريتنا. وفى نفس الوقت أثبت أن الإسرائيليين يمارسون هواية ارتكاب الأخطاء وهذه مسألة محزنة إلى أقصى حد .

ماالذى حدث ؟ وكيف حدث ؟

فى الرابع عشر من ابريل صدر البيان فى الصحيفتين ، ولاحظت معاريف أن دافار نفدت بسرعة مذهلة من الأسواق ، فتحولت على الفور إلى ناشر جيد لما نكتب. ففى السابع عشر من نفس الشهر نشرت معاريف نصاً كاملا ودقيقاً لما كتبناه عن قضية بيير تحت عنوان « مآثر المخابرات المصرية » وفهم من طريقة عرض الموضوع أن السلسلة كلها سوف تنشر تباعاً لأن الصحيفة كتبت رقم (١) على رأس الصفحة .

وفى اليوم التالى نشرت معاريف الحلقة الثانية كما توقعنا تحت نفس العنوان ، وقالت بالحرف الواحد أن هذا هو المقال الثانى فى سلسلة مقالات « ماهر عبد الحميد » . والغريب أن الجريدة أوردت نفس كلماتنا دون أن تبدل كلمة واحدة ودون أن توجه للمضمون أى نقد أو تكذيب، وكانت هذه الحلقة عن موردخاى كيدار . وليس ثمة شك

فى أن هذا الإجراء الذى اتخذته معاريف كان ذكياً، ويبدو أن لديهم أنفا صحفية حساسة لأن عدد يوم ١٧ وعدد يوم ١٨ اختفيا بسرعة البرق من الأسواق مما برهن على تعطش الرأى العام الإسرائيلى إلى الاطلاع على التفاصيل بواسطتنا لا عن طريق مخابراته. ومن الذكاء أيضاً أن معاريف اختارت ذلك العنوان الساخر فى محاولة واضحة لإسكات جهاز المخابرات الإسرائيلى، وإن كنت أفضل هذا العنوان فعلا .

وبصرف النظر عن العنوان فإننا نعتبر معاريف نفسها وثيقة قوية لصالحنا لأنها أثبتت بطريق غير مباشر أن الكلمة الصادقة قادرة على النفاذ حتى فى قلب العدو ، ومن المؤسف أن معاريف أجبرت على إيقاف نشر بقية الحلقات بعد أن لاحظت المخابرات الإسرائيلية إقبال الإسرائيليين على قراءة النص العبرى . وهكذا مر يوم ١٩ إبريل وهو يوم عطلة لا تصدر فيه معاريف ثم صدرت الجريدة يوم ٢٠ وقد نسيت المسألة برمتها .

سوف نتحدث الآن بلغة اقتصادية صريحة ، فما دام الموضوع مقروءا إلى هـــذا الحد فى إسرائيل وطبقاً لما أعرفه عن الخصائص الاجتماعية الإسرائيلية فإننى اقترح أن تقوم أى دار نشر إسرائيليـة ــ بشرط أن تكون هذه الدار ذات سمعة طيبة نوعا ــ بطبع سلسلة «علام من القاهرة» فى كتاب باللغة العبرية، إن الصفقة سخية للغاية كما أننا سوف نقدم المعاونة الضرورية بالطبع .

لقد استعرضنا حتى الآن فى هذه الدراسة ما جاء فى البيان الإسرائيلى

من حيث الموضوع ولكن هناك نقطة جوهرية تتعلق بالشكل ، إذ أننا نسأل :

هل هو إيزر هاريل الذى سلم البيان للصحيفتين الاسرائيليتين حقاً؟

من الضرورى أن نجرى تحليلا شاملا لكى نخلص إلى الإجابة ، وسوف نستعين بكل المعلومات التى تساعدنا. وأهم هذه المعلومات ما كان متعلقا بالسيد إيزر هاريل شخصيا . فى حقل المخابرات لابد من وضع المعلومات المتوافرة عن شخصيات ضباط العدو موضع الاعتبار عند التنبؤ بتصرفاتهم وعند حساب رد فعل ما .

من هو إيزر هاريل هذا ؟

لقد كان مديراً للمخابرات العـــامة الإسرائيلية وهم يسمونها « الموساد » ، مجرد تسمية فارغة لا معنى لها ولكن لا بأس فليس هذا موضوعنا الأصلى ، إن اسمه الحقيقى ليس هاريل ولكن هالبرن ، وقد رأس منظمة المخابرات الإسرائيلية لمدة ثلاث عشرة سنة خلفاً لايزر بائيرى ، وأجبره بن جوريون على الاستقالة فى ٢٥ مارس ١٩٦٣ .

كان ايزر قد بدأ حياته عاملا فى مصنع للخل وقد ولد فى بيتفسك فى روسيا ورحل مع أسرته إلى دفنسك فى لاتفيا بعد قيام الثورة. كانت نشأته قاسية بشكل يدعو إلى الرثاء ، فلم يكن لدى أسرة هالبرن طعام يكفى ايزر وأخاه التوأم وأخته ، وفى السابعة عشرة من عمره رحل إلى إسرائيل وتعلم الزراعة فى ريها والتقى هناك بزوجته البولندية ريفيكا

واتهم فى تلك الفترة بالاستيلاء على بعض المنقولات الخاصة بالكيبوتز. وبقيام إسرائيل حصل ايزر على رتبة مقدم دفعة واحدة، ولكن العمل فى تعبئة خزانات الخل شيء وقيادة جهاز المخابرات شيء آخر، لذلك تميزت الفترة التى رأس فيها ايزر جهاز المخابرات الإسرائيلى بالعجز البين باستثناء حادثتين اثنتين كان الهدف منهما إحداث أكبر قدر من الضجة وليس تحقيق تقدم فعلى فى الجهود السرية. الحادثة الأولى هى اختطاف إيخمان. أما الثـــانية فكانت اختطاف طفل يهودى يدعى « يوسل » وكانت أسرة يوسل قد أبعدته سراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب تتعلق بالتعصب الدينى .

والذى يعنينا هنا هو حادثة استقالة إيزر من منصبه لأن القصة مثيرة فعلا إذ أقدم أيزر على تصرف لا يتفق مع روح المهنة، وكان هذا التصرف مشابها للتصرف الذى أقدمت عليه المخابرات الإسرائيلية مؤخراً وهو الإيعاز للصحف بنشر بيانات معينة .

ففى مساء الخميس الموافق ١٥ مارس ١٩٦٣ نشرت اليونايتدبرس خبر إلقاء القبض على عميلين إسرائيليين فى مدينة زيورخ أحدهما يدعى جوكليك والثانى يدعى بن جال للاشتباه فى أنهما قاما بتهديد ابنة أحد العلماء الألمان وهو الدكتور جينزجيرك لكى تحث والدها على ترك العمل الذى كان يقوم به فى مصر، وكان هناك اشتباه قوى فى أنهما هما اللذان حاولا قتل الدكتور هانزكينواشتر قبل ذلك بأسبوعين فى لوراش وقد طلب البوليس الألمانى من السلطات السويسرية تسليمهما لألمانيا.

وتسببت هذه الحادثة فى أن موقف ايزر أصبح بالغ الصعوبة، فقد اتضح للرأى العام العالمى أن المخابرات الإسرائيلية تمارس واجباتها بأسلوب لم يسبق أن سمح أى جهاز للمخابرات لنفسه بممارسته من قبل. وكانت الطرود المتفجرة التى أرسلتها المخابرات الإسرائيلية إلى العلماء الألمان فى مصر والتى أدى واحد منها إلى فقد سكرتيرة أحد هؤلاء العلماء لبصرها دون جريرة، كانت هذه الطرود قد أصبحت موضع اشمئزاز العالم المتحضر بأسره.

وحاول ايزر هاريل عبثا إقناع بن جوريون بأن تقوم الحكومة الإسرائيلية بإذاعة رد علنى على موجة السخط التى أخذت تغرق إسرائيل والإسرائيليين، وكانت جولدا مائير قد صاغت رد إسرائيل بعناية وقدمه ايزر لبن جوريون الذى قرر عدم تقديم أى رد، أما فيما يجب أن يقال للصحافة فقد قال: يجب ألا نثير موضوع الصواريخ ونكتفى بمجرد خبر إلقاء القبض على الرجلين.

وكان بن جوريون يقصد بموضوع الصواريخ ما شاع وقتئذ من أن العلماء الألمان كانوا يعملون فى برنامج لصناعة الصواريخ الموجهة لحساب القاهرة.

وأمام إصرار بن جوريون على تجاهل المسألة لجأ ايزر إلى التصرف الذى أشرنا إليه والذى يتناقض تماماً مع شرف رجل المخابرات وولائه لحكومته، فقد استدعى ايزر سراً ثلاثة من الصحفيين، وهؤلاء الصحفيون هم:

صموئيل سيجيف عن معاريف

نفتالى لافى عن ها آرتس

بن يورا عن يديعوت أحرانوت

وقدم لهم ايزر بيانا وافيا بكل تفاصيل القضـــية وطلب منهم أن ينشروه كل بأسلوبه الخاص حتى تبدو المسألة عادية . واعتباراً من مارس ١٩٦٣ بدأت الصحف الإسرائيلية طوفانا من العناوين المثيرة عن نشاط العلماء الذين استأجرتهم مصر لإنتاج الأسلحة التى تكفل لها شن حرب بيلوجية وإشعاعية. وقالوا أن المصريين يصنعون كمية هائلة من الغازات السامة ، وأن صواريخ المصريين قادرة على تحطيم كل هدف جنوبى بيروت ، وقال البعض أن هذه الصواريخ محشوة بالمواد القتالة . وهكذا استبد الغضب بين جوريون ليس لأن هذا التصرف يتنافى مع واجبات رجل المخابرات ولكن لأن الشعب الإسرائيلى أصيب بالذعر وكان بن جوريون يعرف أن شعبه ليس ككل الشعوب، وأن كل جنس من أجناسه المتعددة جاء من قطر مختلف، وأن لديهم فى بلادهم الأصلية إمكانات العيش فى سلام، وكان أخشى ما يخشاه بن جوريون أن يحمل الإسرائيليون حقائبهم ويعودوا من حيث أتوا .

وفى وقت متأخر من مساء ٢٤ مارس استدعى ايزر إلى منزل رئيس الوزراء، وفى بداية الحديث أبلغه بن جوريون أن البيانات التى نشرتها الصحف بتحريض منه كان لها تأثير مخجل . ولا شك أن بن جوريون ــ لو كان حيا ــ كان سيدلى بنفس الكلمات فى وصف بيان المخابرات

الإسرائيلية الخاص بالسيدة ديانا ذهابي وعشيقها ، ولجـــأ ايزر إلى الكذب فزعم أنه لم يقدم أية بيانات للصحف الثلاث وعندئذ استبد الحنق بالرجل العجوز .

ويبدو أن بن جوريون - ولابد من الاعتراف بأنه كان رجلا ذكيا - أراد أن يكشف حقيقة عامل مصنع الحل الذى ارتفع بمعاونته شخصياً إلى مدير للمخابرات . ففى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ٢٠ مارس أرسل بن جوريون خطابا سريا إلى ايزر هاربل يطلب منه أن يجيب كتابة على الأسئلة التالية :

ه ماذا يعرف عن عمل العلماء الألمان فى مصر فى مجـال الأسلحة غير التقليدية ؟

ه هل لديه معلومات مفصلة عن الشركات الصناعية الألمانية التى كانت تزود مصر بالمواد الأساسية والآلات المستخدمة فى تصنيع مثل هذه الأسلحة ؟

ه ما هى المصادر التى استقى منها هذه المعلومات ؟

كان بن جوريون يعرف أن مرءوسه لم يجمع أية معلومات ذات قيمة فى هذا الخصوص ، وكان خير من يعرف طرق ايزر فى مواجهة مثل هذه المواقف . ولم يتمكن ايزر من الإجابة على أى سؤال من الأسئلة لذلك اضطر إلى تقديم الإجابة الوحيدة التى كان بن جوريون يتوقع أن يحصل عليها ، وهى مذكرة استقالته .

أن تحليلنا هذا يميل إلى ترجيح احتمال ظهور ايزر هاريل على المسرح مرة أخرى ، باعتبار أنه رجل أدمن لعبة الإيعاز ببيانات للصحف ولكن البيان الأخير جاء خلوا من رائحة الخل ، فلو أن ايزر هو الذى تصدى لنا بالرد لكان اهتمام معاريف بنشره مشوباً بالاحترام ، ومن المؤكد أنها كانت ستوليه عناية مناسبة، وربما كانت خصصت له مساحة فى صفحتها الأولى ، إن لدينا بعض المعلومات فى هذا الشأن . فمدير تحرير معاريف يدعى جوثمان ، وجوثمان هذا شقيق أهارون باريف الذى تربطه صداقة حميمة بايزر ، ولعل هذا الاستنتاج يوضح لنا السر فيما ورد فى صحيفة دافار . لقد بدأت دافار البيان هكذا : دوائر الأمن ترفض المزاعم المصرية ، وبعد ذلك عادت وأشارت إلى أن هذا أيضاً هو رأى ايزر هاريل ، إذن هى دوائر الأمن التى ترفض وليس ايزر، لقد كشفت دافار دون أن تدرى سراً خطيراً إلى حد ما . هو أن المخابرات الإسرائيلية لا تتوخى الدقة فيما تنشره على شعبها، وقد ألصقت اسم مديرها السابق على بيان أعد فى مكاتبها ، وهى تظن — ربما بسبب سوء التقـــدير — أن ذلك سوف يبرر الفقر الواضح فى معلوماتهم إذ أنهم لم يذكروا أية تفاصيل عن شخص بيير كما فعلنا نحن ، ولعل العذر الذى يتسامحون به هو أن ايزر نسى التفاصيل بعد تقـــاعده الطويل .

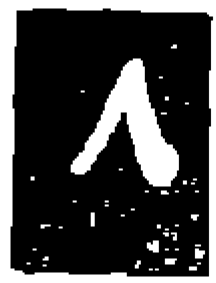
إننا نتسامح إلى حد قبول فكرة أن مدير المخابرات السابق ايزر هاريل قد خرج من زوايا النسيان ليوضح الأمر دفاعا عن نفسه . وعلى ذلك نود أن نوجه إليه سؤالا واحداً :

ما رأيه فى الوثيقة المنشورة هنا ؟

إنها واحدة من وثائق الدكتور إسرائيل بيير قدمتها المخابرات المصرية السيدة ديانا ذماني وهي تتضمن كافة المعلومات الفنية عن القوة الجوية الإسرائيلية ، وليس هناك أي جهاز للمخابرات يستطيع الزعم بأنه اطلع على هذه الوثيقة من قبل .

إن أجهزة المخابرات لا تقدم في الأحوال العادية على نشر وثائق عملائها ، وهم يرفضون أن يفصحوا عما لديهم إلا بعد بحث وتمحيص كاملين ، ولأن ما ذكرناه في سياق وقائع «عملاء من القاهرة» كالتواريخ والأسماء والأماكن والصور يعد في حد ذاته وثائق بالغة القوة . فإنني لم أتمكن من الحصول على أية وثيقة أخرى وإن كنت أعتقد أن هذه الوثيقة تكفي لكي يلزم الآخرون الصمت .

بعد ذلك تبقى كلمة أخيرة في حديث الوثائق . فما دامت الوثائق ضرورية إلى هذا الحد ، وحتى لا ندخل في حوار يشغلنا عن موضوعنا الأصلي ، قررنا أن ننشر القصة التاليـــة ، وهي قصة لابد من الاعتراف بأنها أقرب إلى الخيال مدعومة بكل الوثائق .



جاسوس القمة.. وقمة الجواسيس

كان ذلك منذ إحدى عشرة سنة ، فى اليوم الأول من أغسطس ، وكانت الشمس قد ارتفعت إلى السماء والجو ينبىء بنهار حار ، وكان « آبد » يقف فى مزرعته بقامته الرياضية وملامحه التى تكشف عن ثقة خيالية بالنفس ، وفى مواجهته كان رجل بدين يقف بصلابة كقطعة من الجرانيت .

كان البدين رجلا من طراز غريب ، فهو يتكلم العبرية ويزعم أنه يهودى ، ولم تكن المزرعة تفتقده مطلقاً ، كان يأتى فى البداية ليشترى الخضراوات والدواجن ، ولكنه تعود أن ينسى بعض حاجياته دائماً ، وهو يحمل مظلة بصفة مستمرة ، كما يتأبط نسخة من التوراة كأنه ولد بها ، ولديه كسكيت يخلعها كلما كف عن الحركة ، وفى معظم الأحيان يخلفها وراءه ، ورغم هيئته « المزدحمة » كان عذب الحديث لا يستطيع المرء إلا أن يصادقه .

كان « آبد » يحب هذا البدين ، ولطالما تحدث معه وهما يقفان وراء مخزن الحبوب، أثناء تجوالهما وسط أعشاش الدواجن ، وأيضاً وهما ينقلان خطواتهما بين ثمار الخرشوف ، ولكنهما فى ذلك الصباح المشمس من أغسطس كانا يقفان فى أقصى أطراف المزرعة حيث تقوم أنقاض مصنع بدائى لعصر الزيت ، وكما يحدث كثيراً فى هذا العالم ، حدث أن تلاقت وجهات نظرهما فى بعض المسائل ، وفجأة همس البدين :

ـــ لماذا لا تسافر إلى فرنسا ؟

استغرق « آبد » فى التفكير دون أن يجيب ، إنه بالفعل يحب فتاة فرنسية « جاكى » موظفة فى شركة إير فرانس ، وكانت الرسائل التى يتبادلها معها تكاد تكون يومية . ولكن البدين لم يكن يهتم كثيراً بالعواطف ، وعندما كان « آبد » يحدثه عن المشاعر التى تملك قلبه كان يتظاهر بالاهتمام ثم يدير الحديث ببراعة نحو اهتماماتهما المشتركة، وفى النهاية وضع يده الثقيلة على كتف «آبد» كأنه يستحثه على «الموافقة» ولم يكن الموقف يسمح بالتردد إذ كان على « آبد » أن يقرر بلا أية مؤثرات ما إذا كان فى مقـــدوره أن ينتهج الجاسوسية بكل ما فى الجاسوسية من مشاق ومخاطر ، ولما أومأ « آبد » برأسه ابتسم البدين ابتسامة صادقة . وبعد ذلك نشر مظلته فوق رأسه ومضى إلى الأفق .

وفى باريس اقترب دور البدين من نهايته .

فى الخامس والعشرين من أغسطس انتظر «آبد» على رأس شارع (دى بينا) ومضى الرجلان معا إلى السفارة المصرية .

كان « آبد » مبهورا ولكنه كان رابط الجأش ، وعندما عبر باب السفارة الخارجى رفع عينيه إلى القصر البرونزى الضخم ثم تحسس جيب سترته الداخلى ، فهناك كان يرقد جـــواز سفره ، وعليه شعار إسرائيل .

وفى الطابق الأول دخل الرجلان إلى غرفة متواضعة الأثاث ، وجلس « آبد » على مقعد خشبى بجوار النافذة الوحيدة فى هذه الغرفة ، كان يترقب بكل حواسه ما سوف يحدث ، وعندما دخل إلى الغرفة شاب طويل القامة يرتدى حلة بيضاء وحذاء أسود انسحب البدين بهدوء .

وكان على « آبد » أن يبدأ الحديث .

روى «آبد» قصة لقائه بالبدين ، وشرح المسائل التى تلاقت عندها وجهات نظرهما ، ولكن الشاب قال فجأة :

ــ دع هذه التفاصيل الآن .. أين جواز سفرك ؟

وأخرج « آبد » جواز سفره وألقاه بالقرب من أصابعه ، فالقى عليه نظرة متعالية وكأنه عثر على أرنب عند جذع شجرة .

ــ لماذا لا تتحدث بلغة أكثر وضوحا من الفرنسية .

– إنى أتكلم العربية والانجليزية واعترف بأن فرنسيتى ضعيفة ، وأجيد العبرية طبعا .

– أنت فى حاجة إلى معاونة ؟

قال «آبد» فى نفسه ، هؤلاء المصريون يكثرون من الأسئلة ، لماذا جئت إليكم إذن ، وتنهد بصوت مسموع ثم قال :

– نعم أحتاج إلى معاونة، لقد تحدثت إلى الأخ الذى جاء معى من مزرعتنا فى «أيطن» وهى نقطة على الخريطة بين حيفا وعكا والناصرة، هل تعرف الطريق الرئيسى بين كفار آناوكيبوتز ياجور ؟ أن ..

– أين تقيم فى باريس ؟

– أقيم فى نوبيه ، شارع دى شونو رقم « ١٢ » الدور الأرضى .

– حسن يجب أن نفترق الآن ، ليس من المعتاد أن يقضى الإسرائيليون الوقت فى سفاوتنا ، بالمناسبة اسمى عمرو .

– وهل هذا هو مكتبك يا سيدى ؟

– مكتبى ؟ .. لا .. لا ..

قال ذلك ونهض واقفا ، وبعد أن تصافح الرجلان خرج « آبد » إلى الطريق وهو يشعر بالارتياح .

وبعد أربعة أيام من هذه المقابله المتسمة بالطرافه تسلم « آبد » رسالة قصيرة ولكنها غريبة ومكتوبة بخط ردىء .

وكانت جاكى قد عثرت على الرسالة ذات صباح خلف الباب ، وعلى مائدة الإفطار فض « آبد » المظروف واطلع على محتوياتها « انتظرنى فى تمام الخامسة بعد غد فى مقهى باب مـــترو أفينو دى لا جراند آرمى المقابلة للشانزليزيه : عمرو » والتصقت قطعة زبد بحلق بد ، عندما قرأ الكلمة الأخيرة ، فقد أدرك أن اللعبة بدأت .

وفى اليوم الأخير من أغسطس قدمه « عمرو » فى هذا المقهى « للثعلب » ، وكان الثعلب ينتحل اسم « يوسف » كان ثعلبا حقيقيا يمد أنفه فى كل اتجاه كأنه يتشمم رائحة الهواء . وكانت عيناه تلمعان ببريق أخاذ وسط ملامحه التى تنم عن البساطة والصراحة ، واصطحبه « الثعلب » بعد جولة قصيرة إلى غرفة فى فندق كلاريدج ، وهناك قدم له القهوة الساخنة ثم بدأ فى توجيه بعض الأسئلة .

— آبد أرجو أن نتحدث بصراحة ، الصراحة مفيدة لكل منا ، هل تبحث عن المال ؟

— المال ؟ لم أفكر فى هذا الموضوع .

— حسنا .. ما هو موقفك المالى ؟

— المزرعة تدر دخلا كبيراً ، كذلك لدى بعض المدخرات .

ظهر الارتياح على وجه الثعلب وملأ لنفسه قـــدحا من القهوة ثم قال :

— فهمت أنك ترغب فى التعاون معنا ، إذا كنت ترغب فى ذلك حقا فإن الأمور سوف تتقدم إلى الأحسن ، هل لديك ما تخفيه

— ماذا تعنى ؟

— أعنى .. هل سبق أن ارتكبت عملا سيئا ؟

— لا

— كالسطو مثلا ؟

— أبـــداً .

— هذه الإجابات تهمنى جداً ، يجب أن نكون واضحين ، أ تشترك فى .. أقصد فى مشاجرة ؟

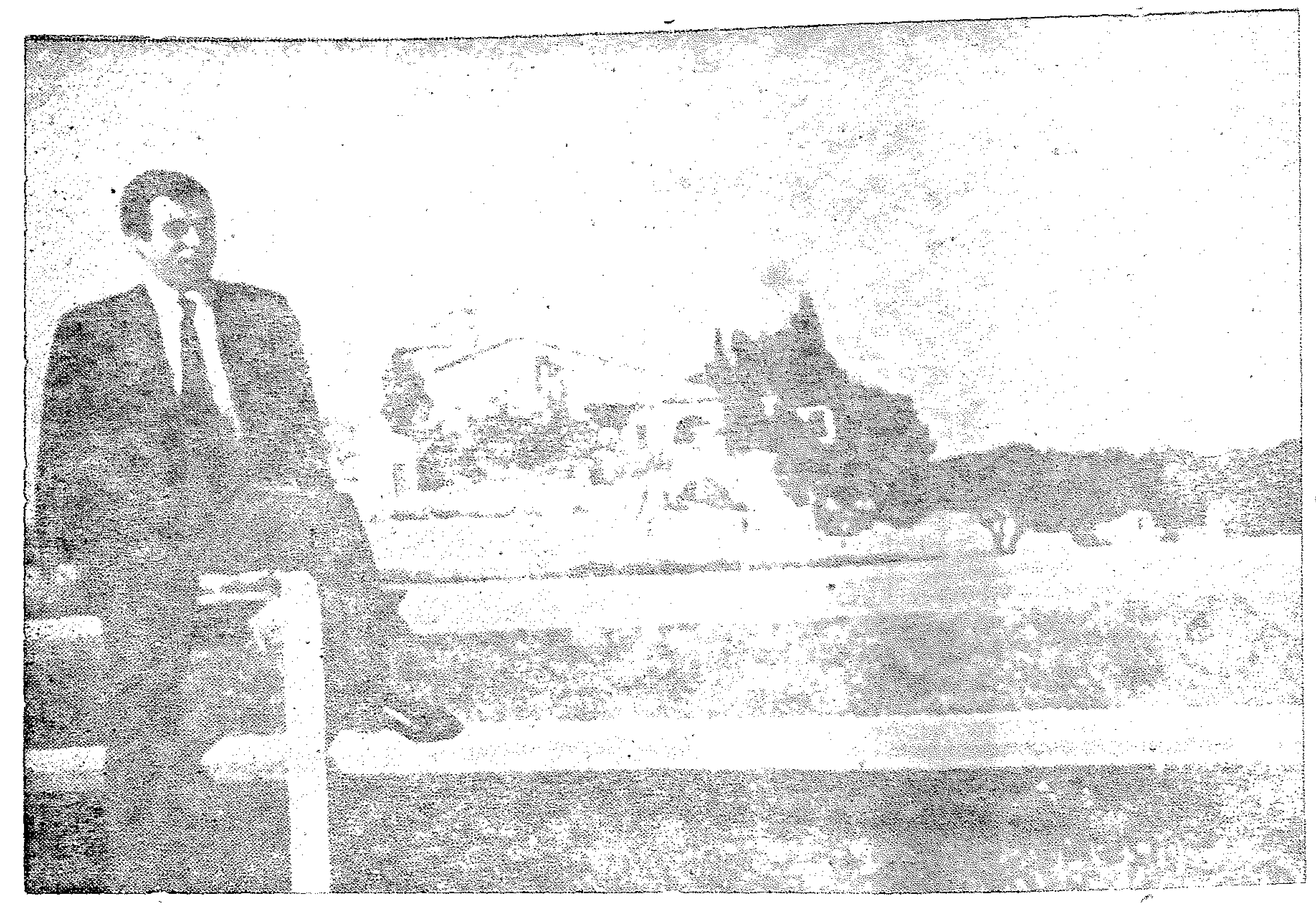
— أحياناً . أحياناً أجد أنى مضطر للدفاع عن نفسى .

— عظيم ، وماذا بشأن النساء ؟

— فى الوقت الحالى ليس هناك سوى جاكى .

— آه .. أعرف ذلك ، ولكنى أعنى العلاقات الأخرى .

— حسنا .. يبدو أنك تود أن تعرف كل شىء ، ثمة علاقات عابرة ، بعض العلاقات القصيرة ، ولكنى اعتزم الزواج من جاكى .



آمد فى مزرعته فى اسرائيل



1 א

אופנוע ותלת-אופנוע

2 א 17.7.62

טרקטור בלבד

3 א

1 ב

2 ב

1 ג 17.4.56

2 ג

.50

رخصة قيادة آيد صادرة عن إدارة المرور الاسرائيلية

— هل لديك هوايات أخرى ؟

قال ذلك وهو يبتسم بخبث .

— أحياناً أشرب ، أحب الشراب الجيد لا أكثر .

— لقد تسلمت بعض التقارير بخصوصك ، هل كونت فكرة عن المستقبل ، بمعنى أوضح ، هل لديك خطط معينة ؟

— نعم . . عندما تحدث إلى رجالكم هناك ، عرضت عليه أن أثير بعض الشغب .

— الشغب؟ إن الشغب هو آخر ما أفكر فيه ، ولكني اقترح نوعا أفضل من العمل ، أفضل كثيرا لأنه لا يحدث ضجة . لنفرض أنك ترغب في زرع قنبلة في ميناء حيفا ، لابد أولا أن تعرف المكان الملائم لوضع القنبلة ، أليس كذلك ؟

ومرة أخرى قال « آبد » في نفسه، هذا الشاب شرير بقدر ماهو مراوغ ، فلم يحدث أن قلت أنى أرغب في زرع القنابل في الميناء ، ولكنه أعلن موافقته على أن العمل يجب أن يكون مسبوقاً بجمع المعلومات ، وفي النهاية سأله الشاب سؤالا يبعث على الحيرة :

— كيف تنطق جاكى اسمك ؟

— آبد .

— سيظل هذا هو اسمك ، أليس ذلك مناسبا ؟

— وهل كان على أن أنتحل اسما آخر ؟

— يا آبد . اتمنى لك حظا طيباً .

* * *

ورغم أن أول رجلين التقى بهما (آبد) كانا على هذه الدرجة من الغرابة ، إلا أنه وجد فى عالم الجاسوسية بعد ذلك جانبا بهيجا ، فقد نصحه « الثعلب » بأن يصحب عروسه إلى إسرائيل ، وقبل أن يرحل قال له :

— آبد . . هل تعرف اسحق رينا ؟

علت الدهشة ملامح (آبد) فلم يكن يخطر بباله مطلقا أن ضابط المخابرات المصرى الذى يتحدث اليه يمكن أن يكون على صلة باسحق رينا ، واستطرد الثعلب :

— اسحق رينا ، قرر إقامة مصنع للحلوى فى أوبرفليت ، ويحتاج إلى نقود للتشغيل . . . أين أوبرفليت هذه ؟

— هنا فى باريس .

— متى ستعود إلى إسرائيل ؟

— لم أقرر بعد ، ولن أسافر قبل فبراير ، جاكى ستحصل على أجازة فى فبراير .

— لا تتأخر إذن ، وعندما تصل إلى إسرائيل فعليك أن تعاون اسحق رينا ، ولكن احذر أن توافق على معاونته فوراً ، تظاهر بالتردد فى البداية ، هل لديك أية أسئلة يا آبد ؟

ولم تكن ثمة أسئلة لدى (آبد) الذى كان يخفى عجبه وراء مظهره المتزن ، ولعله كان يتوقع بعض الغموض ، ولكنه لم يكن يتوقع أبدا هذا الأسلوب من العمل ، ومع ذلك مضى قدما فسافر فى الرابع من فبراير إلى حيفا .

كان العم اسحق رينا مواطنا إسرائيليا يقيم فى كيريات موتسكين ، وحتى هذه اللحظة ما زالت زوجته استير وابنتها ليلى وشقيقتها يشرع يقيمون هناك ، والمذهل أن العم اسحق زار مزرعة (أيطن) والتقى بآبد وعرض مشكلته عليه ، وافق آبد بعد التردد اللازم على المساهمة بحوالى عشرين الف ليرة إسرائيلية . وانتهت الصفقة بسفر الرجلين إلى فرنسا . وأقيم المصنع فى أوبرفليت بالفعل ، وكان ينتج ثلاثة أطنان من الحلوى يوميا فى البداية ، وكان لآبد ثلاثون فى المائة من الأرباح . ولكن الشيء المحير أن العم اسحق لم يكن عميلا للمخابرات المصرية ولم تكن له أية صلة بها .

وفى باريس تحول صاحب المزرعة الوسيم إلى رجل أعمال ناجح ، بعد أن أصبح تنقله بين إسرائيل وفرنسا أمرا منطقيا ، وقد اشترى عربة ستروين سجلها فى سجلات المرور الفرنسية برقم (١٣٨ ك ٩٢) ، وأتم دراسته فى الاليساذس فرانسيز وأتقن اللغة الفرنسية ، وأقام مع جاكى الفاتنة بعد أن تزوجها فى شارع دى شرنو ، وتدفقت الأرباح وازدادت أعماله رواجا .

ولكن كل ذلك لم يحل دون قيامه بجولة طويلة فى أوربا تحت

ستار البحث عن المواد الخام للمصنع ، وأيضاً لتسويق منتجاته ، وإن كانت مهمته الحقيقية بعيدة كل البعد عن أعمال التجارة .

ففي قرية « كنـوك » الواقعة على الحدود الهولندية ـ البلجيكية أقام له « الثعلب » أغرب مدرسة في هذا الكون ، إذ كانت تحتل فيللا من طابقين بالقرب من شاطىء البحر ، وكان الطابق الأول مخصصا لإقامة المدربين ورجل يقوم بدور الخادم ، وفي الحديقة كانت عربة صغيرة من طراز فولكس فاجن ترقد في جراج ضيق ، أما الطابق الثاني فكان يشتمل على صالة للتربية البدنية ، وغرفة نوم ملحق بها حمام ، وفصل دراسي واحد لتلميذ واحد هو « آبد » .

وكانت الأوامر قاطعة وصريحة . المشتريات كل أسبوع ولا ظهور في النوافذ ، ولا خروج من الفيللا إلا بنظام خاص ، التدريب يبدأ في الصباح الباكر والقهوة ممنوعة بعد الثامنة مساء . فقد كان جاسوسا عظيما يعد بعناية لكي يشق طريقه إلى قلب إسرائيل .

وفي هذه المدرسة تعلم «آبد» ألوانا عجيبة من المهارات ، وصنوفا أكثر عجبا من الحيل ، وكانت درجة استيعابه رائعة إلى أبعد مدى ، وقد دُرب تدريبا جيداً على الإرسال والاستقبال وتشفير الرسائل والكتابة السرية والتصوير ، وقضى وقتا طويلا في التدريب على جمع المعلومات ، وكانت تمارين تقوية الذاكرة قاسما مشتركا في البرنامج اليومي لتنمية قدرته على الاختزان : فقد وضع في الاعتبار أن المعلومات البالغة السرية لابد أن تنقل من إسرائيل إلى فرنسا أثناء رحلاته المقبلة

من المزرعة إلى المصنع ، ومن المصنع إلى المزرعة ، كذلك تسلم الرمز الذى عمل تحته طوال السنوات التالية (V/33) .

وكان عليه أثناء الدراسة أن يكتب رسالة لزوجته كل أسبوع ، وكان الثعلب يمده بأوراق لكتابة الرسائل عليها أسماء فنادق منتشرة فى العواصم الأوربية . والغريب أنه ذكر لزوجته فى إحدى الرسائل أنه يقيم فى شقة تملكها سيدة فرنسية فى زيورخ ، وحدث أن اتصلت زوجته تليفونيا بهذه السيدة مستفسرة عنه ، وأجابتها هذه السيدة بأنه غادر المكان فى اليوم السابق متجها إلى روما ، ويبدو أن الثعلب أرسل أحد رجاله بعد أن زوده بأوراق تثبت أنه « آبد » ليقوم بالجولة نيابة عنه حتى يغطى وجوده فى مدرسة التدريب .

وفى آخر أيام الدراسة أقيمت له حفلة تخرج على نطاق ضيق ، وأخيراً انطلقت به الفولكس إلى « بولون سيرمير » وهناك وجد تذكرة فى القطار المتجه إلى « ليل » ، ومن « ليل » استقل قطار الحادية عشرة ليلا إلى باريس ، وقد منح أجازة لمدة أسبوعين كاملين . وفى باريس كان العم اسحق رينا سعيداً رغم أن جولة «آبد» لم تسفر عن أى كسب ذى بال . ولاحظ « آبد » أن حساب المصروفات الذى أطلعه عليه العم اسحق ، كان يتضمن بعض المبالغات التى لاتعنى سوى أنه اختص نفسه ببعض المزايا ، أما جاكى فقد نظرت إلى الرحلة بارتياب خفى ، ودققت البصر فى أكتاف سترته ، ودست أنفها فى ثيابه ، لعلها تعثر على آثار امرأة أخرى .

وفى منتصف ابريل سنة ١٩٦٦ التقى آبد بصديقه « الثعلب » فى حانة الملاك الأزرق ، وصحبه الثعلب إلى شقة فى شارع سان كاود ، وهناك أطلعه لأول مرة على معدات التجسس وهى : جهاز راديو دقيق الصنع مزود بعجلة خاصة لتنقية الصوت ، وجهاز إرسال مكون من ثلاث أنابيب معدنية ، وثلاث لفات من البلاندلاج - الشاش الطبى - يمكن بإذابة قطعة منها فى كوب ماء أن يحصل على حبر سرى يكفى لكتابة مقال كامل ، وكاميرا للتصوير ، وزجاجة بها مسحوق رمادى وأمبول أشبه بأمبول الماء المقطر الذى يستخدم فى الحقن ، وكان عليه أن يخلط السائل الذى فى الأمبول بالمسحوق الرمادى ليحصل على قنبلة تكفى لتفجير معدات التجسس كلها فى الوقت المناسب .

وفى مايو ١٩٦٦ رحل « آبد » - دون أن يصحب زوجته - إلى حيفا ، وكانت الستروين معه على نفس الباخرة ، ولأن صديقه «الثعلب» كان رجلا على دراية بأمور كثيرة كما كان يبتكر حلا لكل مشكلة كانت معدات التجسس تقبع فى بطن تنك البنزين فى عربته ، وتمكن من اجتياز أخطر مراحل مهمته بنجاح إذ مرت العربة بعد أن فحصها مفتشو الجمارك فى حيفا بدقة ، واستأجر لنفسه شقة فى العمارة رقم ٥٣ بشارع بارجيورا ، وكانت شقته الفاخرة تطل على نادى «هابوعيل» - هابوعيل معناها العامل - وكانت أهم مميزات هذه الشقة ، خارج الشقة نفسها ، إذ كان ملحقا بها جراج صغير أسفل العمارة ، وفى هذا الجراج استخرج « آبد » أكياس البلاستيك التى كانت تحتــــوى على المعدات الخطيرة ولم يكن الشق الذى أحدثه فى تنك البنزين كبيرا ، وتمكن من لحامه دون أية ضجة .

وادعى « آبد » أن لديه فكرة تصدير كمية هائلة من الموالح إلى فرنسا كغطاء لإقامته بمفرده فى ميناء حيفا ، وكان واضحا أن الشهية تأتى مع الأكل وأن النجاح يؤدى إلى النجاح .

وفى هذه الفترة حصل آبد على معلومات عظيمه النفع عن ميناء حيفا ، والتقط لنفسه مجموعة من الصور فوق حاجز الأمواج فى الميناء ، وأجرى أول اختبار للاتصال ، وكانت الرسائل واضحة بدرجة كافية ، أما مراسلاته بالحبر السرى فكانت على عنوان فى بال بسويسرا .

وكان « آبد » عملاقا بالغ الجرأة لم تقف أمام روحه الوثابة أية عقبات ، كذلك كان مخلصا ، سرعان ما أقام شبكة قوية بهدف تأمين شريانين رئيسيين بينه وبين العالم الخارجى ، أحدهما عن طريق الميناء ، وكانت وسيلته هناك شابا عربيا يدعى توفيق رياض ، وكان توفيق يعمل برتبة « رف سمال » « صول » فى قوة ميناء حيفا . والآخر عن طريق الحدود الإسرائيلية المطلة على سوريا والأردن ، وكان رجله هناك شابا درزيا يدعى مازن الطبى ، كذلك تمكن من تجنيد فتاة بغى من أصل يمنى تدعى تسيبورا زابارى .

وفى هذا الوقت كانت مطالب المخابرات المصرية تتوالى كأنها طوفان ، طلبوا منه معلومات مفصلة عن الميناء الحربى ، وكلفوه برحلات متعددة إلى كل الموانىء الإسرائيلية بهدف الاستطلاع . . وقد تمكن من إجابة مطالب القاهرة بحماس لم يمنعه من توخى الحذر .

ولست اعتقد أن هناك جاسوسا تمكن من تأدية واجبه كما فعل «آبد» كما أعتقد أن هذا البطل لم يشعر ولو لحظة واحدة بأن حياته ذات قيمة ، فقد ضحى بنفسه وبذل جهده كله ، وحقق لمصر أجل الخدمات على الإطلاق .

وذات يوم كان « آبد » قد فرغ من بث إحدى رسائله إلى القاهرة وحمل جهاز الإرسال إلى مخبئه الأمين فى الحمام ، حيث كان قد نزع أربع قطع من المزايكو وحفر وراءها حفرة لإخفاء معداته ، وما أن فرغ من تثبيت المزايكو فى موضعه والصقه بمادة لاصقة حتى دق جرس الباب ، وعندما فتح « آبد » باب الشقة شعر كان ساقيه تحولتا إلى لفافتين من قش الأرز ، فأمامه مباشرة ، وعلى مسافة ياردة واحدة كان يقف جيورا زايد ، نائب مـــدير المخابرات الإسرائيلية فى حيفا .

واتضح بعد ذلك أن جيورا - هو ابن ألكسندر زايد أحد مؤسسى إسرائيل وله تمثال فوق هضبة « جنمات زايد » كان صديقا لآبد منذ الطفولة ، ولم تكن زيارته لأسباب تتعلق بمهنته إذ أنه سأل عن آبد فى المزرعة وعرف أنه يقيم فى حيفا فجاء لزيارته ، وانتهز آبد الفرصة فأعاد توطيد صداقته برجل المخابرات الإسرائيلى ، وفيما بعد ، كان آبد يحرص على تزويد جيورا بالمقويات — التى تدخل فى تركيبها الهرمونات — وكان يغرقه بالهدايا التى كان يجلبها من فرنسا ، وحصل منه على قدر ثمين من المعلومات .

فى مايو ١٩٦٧ ، أخذت نذر الحرب تتجمع فى الأفق ، وكان « آبد » هو أول من تشمم رائحة الحرب حتى قبل أن تحتدم الأزمة الشهيرة حول خليج العقبة ، إذ استدعاه المصريون إلى باريس واتفقوا معه على شفرة مختصرة ، «عمتى مريضة» إذا كانت الحشود الإسرائيلية فى الجنوب ، أما إذا كانت البرقية « عمتى مريضة وأمى بخير » فمعنى ذلك أن اسرائيل كلها تحتشد للحرب .

وطوال شهر مايو كان واجب « آبد » أن يجوس خلال اسرائيل وأن يراقب المطارات وأن يجمع معلومات فورية من أفراد السلاح الجوى ، وكان هو على عادته جسورا لا يهاب شيئاً ، وكانت المعلومات التى أرسلها فى تلك الفترة بالغة الغزارة ، كما أن برقياته توالت بشكل مؤثر ، وكانت كل برقياته تشير إلى الاستعدادات الإسرائيلية المكثفة . وبعد حرب ١٩٦٧ ، طلب المصريون من « آبد » أن يقترب أكثر من المؤسسات الإسرائيلية المغلقة ، فكان هو يتعجب لأن هؤلاء الرجال لم يفقدوا القدرة على مواصلة جهودهم الخارقة بنفس الحماس رغم الصدمة ، ولم يكن آبد قد توغل بعد فى عالم المخابرات إلى الحد الكافى ، وإلا لزال عجبه ، لأن القاعدة الأساسية التى تحكم رجل المخابرات هى ألا يفقد صبره أبدا ، وأن يستفيد من موقف الضعف لكى يثب إلى مواقف القوة ، وأن يتخطى الصعاب الناجمة عن سوء التقدير لمعلوماته دون أن يعير ذلك أدنى التفات .

وعندما عاد « آبد » إلى اسرائيل وثق صلته أكثر بجيورا زايد ،

ولم يكن جيورا هو أفضل أصدقائه إذ كان يعرف موشى ديان نفسه منذ كان ديان وزيرا للزراعة، وعندما سطع نجم ديان بعد حرب ١٩٥٦ أقلع عن زيارة المزرعة التى كان يطيب له أن يقضى بعض الوقت فيها عندما كان مغمورا ، ولـكن المصريين طلبوا من رجالهم أن يسعى وراء ديان ، ولم تكن الكبرياء مطلوبة فى هذا الموقف ، لذلك حصل واحد من رؤسائه على جرة من الفخار ، يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة ، ودفنها وراء سور متهدم بالقرب من مصنع عصر الزيوت فى مزرعته ، وهناك ، قرر أن يزيل بقايا المصنع ليقيم مكانه فيللا له ، وأثناء الحفر عثر على الجرة ووجد من المناسب أن يخطر صديقه القديم بالكنز الذى عثر عليه بالصدفة .

كان ديان منتفخ الأوداج بعد حرب ١٩٦٧ ، ولم يكن فى موقف يسمح له بالتبصر ، فقد ركب الموجة واعتقد أنه هو الذى انتصر ، وكانت الأفعال المنعكسة تتضاعف فى الجو ، الجماهير الإسرائيلية تعتقد أن ديان هو البطل ، وديان يعتقد ذلك هو الآخر لأن الجماهير تنادى به ، وكان الفيلسوف الشهير هيجل يشهد من العالم الآخر نظريته عن الأفعال المنعكسة وهى تطبق على خير وجه . وفى تلك الفترة ازداد حماس ديان تجاه الآثار ، فراح ينقب عنها لعله يعثر على ما يثبت أن اسرائيل كانت ذات حضارة فى يوم ما ، وكانت روث زوجة ديان السابقة قد هجرته وافتتحت محلا لبيع التحف الأثرية فى تل أبيب ، وذات يوم ذهب « آبد » إلى فندق دان فى ألهركون حيث تعود ديان أن يقضى فترة ما قبل الغروب فى احتساء الويسكى بصفة مجانية . وهناك

التقي الأصدقاء القدامي وهمس « آبد » في أذن صديقه بقصة الجرة ، وعلى الفور استقل ديان عربة آبد وتبعتها عربة جيب الحراسة: وعندما وقع بصر ديان على الجرة كاد أن يرقص طرباً، وهكذا توطدت صلة جاسوس القاهرة، بأعلى شخصية في جيش الدفاع، وتكشفت جوانب خافية من حياته.

كان عملاقاً في نظر الآخرين ولكنه قزماً بينه وبين نفسه، إذ كان يشعر بالإرهاق لأقل سبب وكان يكره دخان السجاير لأنه يصيبه بضيق في التنفس، وعرف آبد أن ديان أدمن تعاطي الحبوب المهدئة، كما كان يصاب بالفزع كلما مر بجوار مستشفى هداسا، فهناك استؤصلت عينه وأصبحت الأخرى مهددة بالذبول، وكثيراً ما كان يصرح لصديقه بقوله : إن لدى عدداً من الأمور الهامة ولكن أهم ما يشغلني هو أنه أتذوق الحياة التي أطل عليها من ثقب واحد - يقصد العين الواحدة - وقد أثرت نزوات ديان على تصرفاته بشكل جلي، فكان مولعاً بالنساء، وقد طلق زوجته بسبب علاقته بسيدة تدعى راحيل كورين، كما كان يقضي وقتاً طيباً مع حائكة ثياب تدعى اليشفا زايسيس وعندما رأى ديان « سالومي » مع آبد سال لعابه من جديد.

كانت سالومي — أورشولاميت — نموذجا نادراً للجمال والفتنة، عينان واسعتان وأنف أشم وشعر فاحم السواد، وكانت بشرتها النضرة تشع بالحيوية وتتوهج بالدعوة على حياء، كانت المرأة مولعة بآبد تتردد كثيراً على المزرعة، وكان ديان يلتهمها بعينه الواحدة ويطيل

بقاءه لأطول وقت ممكن إن تصادف أن وجدها هناك ، وفى هذه الآونة وأثناء السهرات الخلوية الممتعة وسط المروج ، ارتكب ديان واحدة من حماقاته إذ قال لآيد : إن مصر غير راغبــــة فى الحرب ، ولكنها لن تجد مفرا من أن تحارب، لذلك سوف استفزهم لكى أعطيهم ذريعة لكى يقدموا على الخطوة الحمقاء الوحيدة التى تلوح أمامهم ، أن يهاجموا وعندئذ سوف أسحق عظامهم .

ومع ديان وطد آيد صلته بشخصية هامة أخرى فى إسرائيل «ديفيد هاكوهين» ، كان ديفيد هذا أحد مؤسسى شركة سوليل بونيه ، وهى شركة مقاولات ضخمة فى اسرائيل ، وقد خدم لبعض الوقت كسفير لإسرائيل فى بورما ، ثم عين سفيرا فى وزارة الخارجية ، وبعد ذلك أصبح عضوا فى الكنيست، وكان متزوجا من امرأة يهودية تدعى تسيبورا ، وكانت تسيبورا متزوجة من رجل فلسطينى يدعى سهل شكرى ، ولكنها تركت زوجها وابنتيها منه ولحقت بها كوهين ، وقد تمكن آيد من السيطرة عليها تماما ، وفى وقت ما من ١٩٦٩ توصل آيد إلى كل الرسوم والتصميمات الخاصة بإنشاء التحصينات الإسرائيلية على جبهة القناة والتى عرفت فيما بعد باسم خط بارليف ، وكانت وزارة الدفاع الإسرائيلية قد سلمت هذه الرسوم على شكل وثائق بالغة السرية لشركة سوليل بونيه لتتولى تنفيذها ، ولم تتكلف عملية الحصول على الرسوم سوى مبلغ صغير نسبياً .

ولكن أسوأ من تعرف عليهم آيد كان رجلا يدعى خالد الزهر

ويعمل موظفا فى وكالة دوف جريفر للسياحة، ويقع مكتبها حتى الآن فى شارع خياط إلى اليمين من ناحية البحر ، هناك حيث باب الميناء بجوار مكتب العال وكان آبد قد خرج من مكتب أوليبيك الذى يقع فى شارع هامتشمنوت « الاستقلال » بعد مقابلة مع ديانا مطر وهى فتاة تعمل موظفة فى شركة أوليبيك وكانت تربطها به علاقة وثيقة ، وأثناء سيره فى المنطقة تعرف على الزهر .

كان الزهر رجلا خسيسا يبدو عليه الجشع عرف فيما بعد أنه كان يعمل مدرسا فى مدرسة ابتدائية وفصل بسبب السلوك فافتتح مطعما شعبيا فى وادى النسناس ثم أفلس وأغلق أبوابه وعندما عثر عليه آبد وجد فيه صيدا ثميناً ووطد علاقته به ثم عقد معه صفقة سخية .

وكان الزهر بحكم عمله فى موقع يطل على قطاع عريض من اليهود الذين يفدون حديثا إلى اسرائيل ، ولأن وكالة جريفر تتمتع بسمعة حسنة رأى آبد أنها المكان المناسب للقيام بعملية فرز دقيقة للمهاجرين الذين يتعاملون معها ، وقد استبعد منذ اللحظة الأولى السيد جريفر نفسه ولم يبق أمامه فى مجال اختيار فراز سوى الموظفين الثلاثة الذين يعملون فى مكتب هذه الوكالة وهم ، شاب رومانى تبدو عليه البلاهة يدعى باكوف، وفتاة يهودية متدينة إلى درجة مخيفة تدعى آليز، وخالد الزهر هذا وهو أفضل الثلاثة على الأقل لأنه فلسطينى الأصل . لذلك وقع اختيار آبد عليه .

واختلق آبد قصة خيالية للزهر : قال أن له صديقا يعمل في تهريب الماس ويود أن يحصل على بعض جوازات السفر ليستخدمها أعوانه المهربون ، وعرض خمسمائة ليرة للجواز الواحد ، ولكن الزهر مسح شفتيه بظهر يده . . ثم رفض ، وعندئذ رفع آبد المبلغ إلى ألف ليرة وأعلن أنه ان يدفع فوقها « أجروا » واحد ، وكانت هذه الحيلة تشكل الخطوة الأولى في عملية تجنيد الزهر .

ونجح العميل الجديد في الحصول على جواز أحد الإسرائيليين وعندما تسلمه آبد أخبره أن الأعمال سوف تتقدم شيئاً فشيئاً ، وأن ثمة صفقات أخرى سوف تعود بربح أكثر وفرة ، وأبدى الزهر استعداداً كافيا لتأدية أية خدمات ولكن آبد لم يكن قد قرر مصارحته بحقيقة الدور المطلوب منه بعد .

وفي الثالث عشر من يناير كان آبد يزمع الرحيل إلى فرنسا فاتخذ طريقه إلى مطار اللد ، وقد لاحظ وهو مندفع في طريقه إلى هناك عربة من طراز بيجو تقتفي أثره فراح يدور في دوائر مقفلة ولكن صورة البيجو اللعينة ظلت تنعكس في مرآة سيارته . واستخدم آبد كل الحيل التي تعلمها للافلات من المراقبة ، وعندما اختفت البيجو في النهاية تنفس الصعداء .

دخل آبد إلى مطار اللد وبصحبته أحد أقاربه وكان كل شيء هادئا وكانت عيناه اللتان تشبهان عيني الفهد تمسحان أركان المطار وهو يشعر في أعماقه بقلق لا يعرف مصدره ، وفجأة وصلت البيجو إلى المطار

وهبط منها رجلان تنذر ملامحهما بالشر ، واستدعى آبد إلى غرفة من غرف حرس المطار وهناك قام الرجلان بتفتيشه بينما وقف أربعة جنود وبنادقهم مصوبة إلى رأسه .

لم يكن فى حوزة آبد أى دليل يمكن أن يدينه ولكن تفتيش حربته أسفر عن العثور على جواز السفر الذى أعطاه له « الزهر » وكان هذا الجواز باسم سيفى حهد تزوج من عمليك بيت شان وسأله أحد الرجلين - وهو ضابط مخابرات يدعى ناثان وينتحل اسم آرنيه - وهو يلوح بالجواز فى وجهه :

— ما هذا الباسبور ؟

— أى باسبور ؟

— هذا .

— آوه ... لقد أخذته خطأ من مكتب السياحة ، يبدو أنه كان ملتصقا بباسبورى ، وكنت انتوى رده بعد عودتى ، لن أبق ...

— لا ... لم تحصل عليه خطأ ، فنحن نعرف .

كان خالد الزهر قد غدر بآبد وكان الإسرائيليون يتصرفون وهم يعرفون أين هدفهم . وأدرك هو أن اللعبة قد انتهت ، لذلك اعترف لهم — وفق القواعد التى تعلمها عن مواجهة مراحل الاستجواب — ولكنه أخفى عنهم أثمن ما فى جعبته . تفاصيل المعلومات التى سلمها للقاهرة عن تحصيناتهم العسكرية .

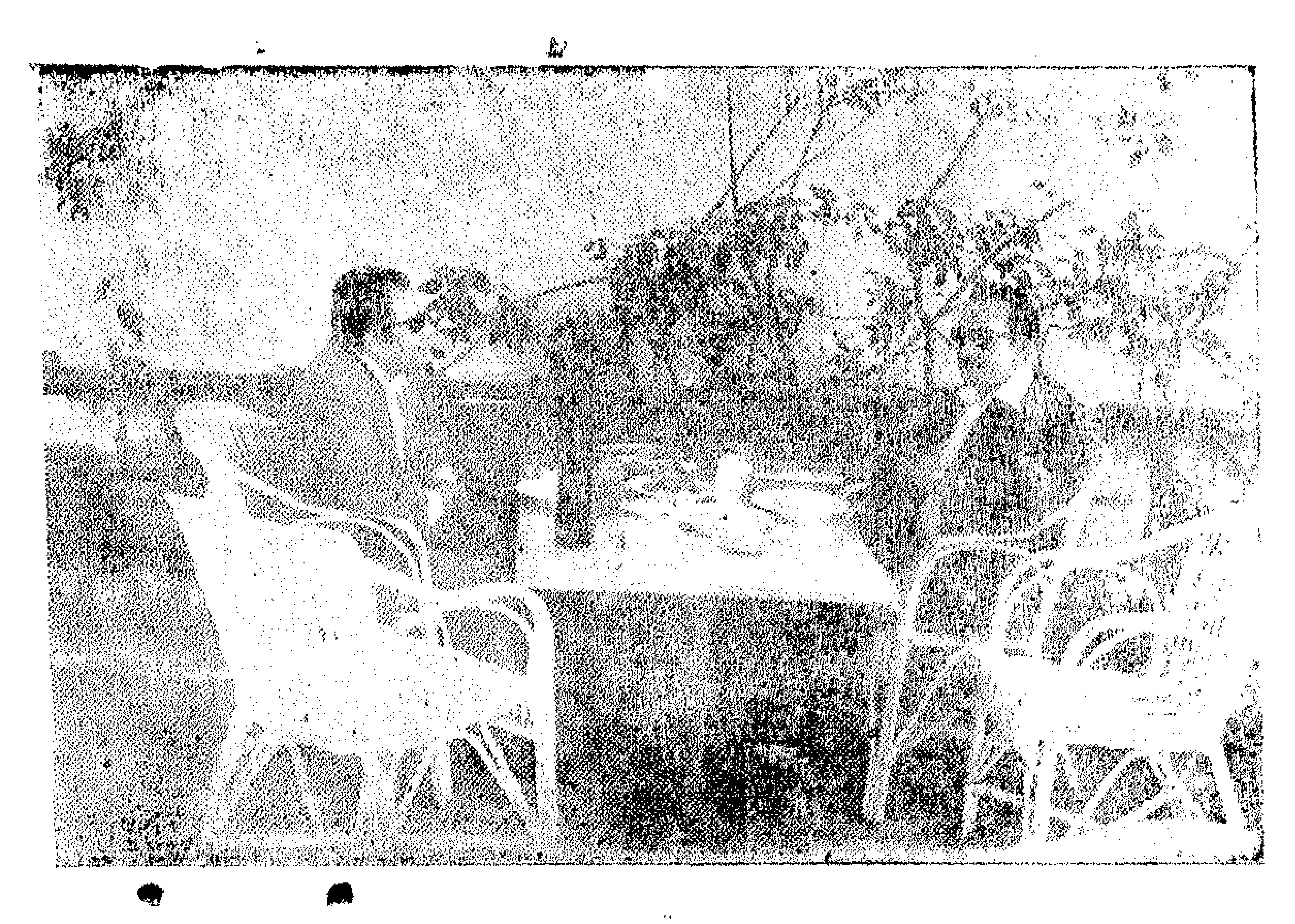
ولأن الإسرائيليين لم تكن لديهم أية فكرة عن هذا الموضوع اكتفوا بما قدمه لهم من أدلة وقدموه المحاكمة وصدر الحكم بحبسه ثمانية عشرة عاما، ومن الغريب أن الإسرائيليين أنشأوا خط بارليف بنفس المواصفات التي كانت في حوزة القاهرة .

هكذا سقط جاسوس من أعظم الجواسيس وأبرعهم نتيجة وشاية ولكنه أصبح دليلا لا يتطرق إليه الشك على عظم نكبة الإسرائيليين في حرب أكتوبر ، فبصرف النظر عن كل الدعاوى الإسرائيلية بشأن هذه الحرب حدث أن أصرت مصر على أن تتسلم جاسوسها قبل مناقشة أى حلول مقترحة للموقف الملتهب الذى توقفت عنده المعارك العسكرية ، كان موقف إسرائيل بالغ الحرج فلم يسبق في التاريخ كله ، أن رضيت دولة بتسليم أحد رعاياها لأعدائها ، والمؤكد أن موقفهم كان قاسيا لأنهم أبدوا ملاحظة في البداية تتعلق باستحالة تسليم أحد الإسرائيليين لمصر ، ثم اضطروا في نهاية الأمر إلى الإذعان .

وهكذا جاء آبد إلى القاهرة . .



آبد يشرح على خريطة والجردلي يراقب المصور



المؤلف مع مصطفى الجردلى فى حديث خاص



المؤلف يستقبل « آبه » عند وصوله

٩

عشاء الجواسيس

مشكلة كبيرة — بلا شك — تلك التى تواجهك لو انك فكرت فى دعوة أحد الجواسيس إلى مائدتك !

أما إذا كان الأمر متعلقا بمجموعة جواسيس ، فإن الأمور تبدو أكثر تعقيدا !

فلا بد أولا أن تجد الوسيلة التى تعثر بها على مدعويك ، فإذا تمكنت من التوصل إلى أماكنهم فيجب أن تذهب منفردا إلى كل منهم ، وأن تتحدث إليه هامسا ، ثم تقنعه بقبول دعوتك ، وإذا نجحت فى إقناعه بالظهور تحت الضوء ، فلا شك أنك تكون قد صنعت ما يشبه المعجزة !

ولقد كان هذا بالضبط ما أقدمت عليه ، وعندما تحدثت إليهم ، وجدت استجابة سريعة منهم جميعا ،

ولعل السر يكمن فى أنى أتحدث نفس لغتهم ، وأحس ذات مشاعرهم ، كما أن مدرستنا واحدة .

كان الوقت بعد الظهر .

وكانت معلوماتى أن « آبد » قد انتقل من الفيللا التى أقام فيها لفترة قصيرة بعد وصوله إلى القاهرة ، إلى أخرى تمتد أمامها حديقة شاسعة لكى يتمتع بالهـــواء الطلق ، كما أنها تضم جراجا لعربته الفـارهة .

وعندما عبرت أمام مسكنه القديم ، تدافعت الذكريات فى مخيلتى بشكل مؤثر ، فهنا اتفقنا على أن أكتب قصته فى كتاب ، وأن يروى لى كل التفاصيل ، وهنا أنفقنا ليالى بطولها ونحن نعمل فى غرفة مكتبه، بينما يرقد كلب الراعى فوق السطح ، وتحته مباشرة كانت «موموت» قطة « آبد » الفرنسية ، ترقد وادعة على حشية فى الشرفة ، وأمام الباب كانت عربتى تقف وأنفها يلامس أنف عربته وكأنهما تتحدثان همسا .

وكان آبد جالسا فى حديقته يطالع كتابا من تأليف درايبل ، وقد سمع بأذنيه المرهفتين وقع أقدامى على العشب ، فهب ليستقبلنى بكل الحفاوة كما هى عادته ، ثم سرعان ما انضمت الينا زوجته تلك السيدة الفرنسية المثقفه التى لا تدخر وسعا من أجل الترحيب بضيوفها .

واستمر حديثنا نصف ساعة ، وكان رأى « آبد » ، أن نشر قصته فى الصحف سوف يؤثر على رواج الكتاب ، ولكنى أعتنق رأيا

مخالفا ، ولاحظت أنه يشعر بالضيق وإن كان يبدى المرح ، وربما كان مرد ضيقه إلى أننا اختلفنا لأول مرة فى مسألة مشتركة ، وربما كانت عادة الكتمان التى تأصلت فى نفسه والتى أدت إلى اقتناعه بعدم إذاعة أى سر من اسرار الكتاب قبـــل صدوره ، قد تغلبت عنده على أى رأى آخر حتى لو كان صائبا ، وفى النهاية تمكنت من اقناعه ثم قبل دعوتى .

وفى اليوم التالى قصدت الفيللا التى يقيم فيها الجردلى . وعندما صعدت الدرج الذى يقوم عند طرف حديقة بيت الجردلى ، ولديه هو الآخر حديقه وإن كانت صغيرة نسبيا ، تصاعدت إلى خياشيمى رائحة سمك يقلى فى الزيت ، واتضح أن الرجل مشغول وأنه ينتظر بعض أقربائه ... وهمست له بالموعد وأنا أداعب طفليه ، عندئذ بدا لى « الجردلى » بصفاته المميزة ، فقد رمقنى بنظرة حادة من خلال عينيه الخامدتين واكتست ملامحه بالبراءة ثم أعلن موافقته بهدوء .

وكان على بعد ذلك أن اذهب للقاء حسن البواب ، وحسن البواب رجل عنيد لا يملك المرء ألا أن يذعن لإصراره القاطع والمهـــذب ، فهو يرفض أن يطلق سراحك إلا بعد أن يطعمك شيئا من الحلوى ، ثم يقدم لك شرابا مثلجا ، وبعد المثلجات يأتى دور القهوة التركية ، ولا بد أن يخرج من جعبته علبة لفائف من ذات النوع الذى يدخنه ، وهو يغرقك اثناء ذلك بعبارات الترحيب الحارة ، ولم يكن للبواب سوى تحفظ واحد ، وهو ألا تظهر صورة السيدة زوجتـه بأى شـكل ، وأسر إلى بأن هذه ليست

رغبته ولكنها رغبتها هى ، ولكنى تمكنت من إقناعه بأن نلتقط لها صورة من بعيد ، وهى خلف زجاج العربة ، وقد حدث ذلك بالفعل .

كانت قائمة المدعوين تشتمل على عدد وافر من الجواسيس ، ومع ذلك فهم مجرد نماذج لمجموعة أكبر ، تماما كما كان الجواسيس الذين نشرنا قصصهم ، وكنت اتمنى أن أحظى بفرصة الجلوس على مائدة واحدة مع أكبر عدد منهم جمعهم مكان واحد فى هذا الكوكب ، وبمقدور القارىء أن يتخيل مـــدى غرابة هذا الجمع ؛ وإلى أى حد كان حديثهم مثيراً ، فقد كانت لدى كل منا تجربته الخاصة ، كما أن المواقف التى واجهناها حفلت بالتشويق والطرافة ، ومن المؤسف انى لم اتمكن من تعريض كل اصدقائى للضوء العام ، فهناك اسرار لا يمكن تقديرها بثمن ، يجب أن تبقى طى الكتمان .

وفى اليوم المحدد وصل الجردلى مبكرا عشر دقائق عن الموعد ، وقد قام بجولة فاحصة حول المكان ليستوثق من أشياء مجهولة ، وربما بحكم العادة ، وعنـــدما التقينا هتف بكل ما فيه من براءة وطيبة قلب : لقد وصلت لتوى وكنت اخشى أن اتأخر ولو دقيقة واحدة .

وبعد دقائق سمعت صوت باب عربة « آبد » وهو يفتح ثم يغلق خلف حاجز من الاشجار ، فأسرعت مـــع الجردلى إلى الباب

لاستقباله ، وكانت مقابلة آبد والجردلى مشحونة بالعواطف ، فقد كانا رفيقى سجن الرملة لليلة واحدة ... كان ذلك منذ سنوات ، عندما مر الجردلى بسجن الرملة اثناء جولته الواسعة فى السجون الإسرائيلية ، وهناك التقى برفيقه ، وهناك أيضا كان « آبد » يدبر خطة للهرب ، والمذهل أنه أخطر بقرار تسليمه إلى القاهرة بصفة رسمية صباح اليوم المحدد لتنفيذ هذه الخطة ، وقد تمكن رجلان آخران من الهرب بالفعل ، وكانت روح « آبد » ترشدهما اثناء الرحلة الرهيبة التى قاما بها ، بعد أن نشرا قضبان غرفة الغسيل فى السجن .

وبعد « آبد » تتابع وصول الجواسيس . وكان أحد المصورين يقوم بالتقاط الصور بشكل علنى ، إذ كان من المستحيل التقاط الصور بصفة سرية فى حضور مجموعة من الرجال كانت مهمتهم الرئيسية لمدة طويلة ، التقاط الصور سرا .

وخلال عشرين دقيقة كان الجمع قد انتظم ، ورحنا نثرثر ونحن نلتهم الطعام والبعض يحتسى الشراب ، وكان بوسع من يقترب من مكاننا ، أن يستمع إلى خليط غـــير مفهوم من الألفاظ : بالعربية والانجليزية والفرنسية والعبرية ، ولم يكن أحد من رواد المكان يعرف بالطبع ؛ أن هؤلاء الرجال ، يستطيعون الدخول من أحد أبواب الجحيم ، ليجتازوا ويخرجوا من الباب الآخر سالمين ، بعد أن يجمعوا أكبر قدر من المعلومات عما يدور بداخله ،

وكان آبد هو محور اهتمامنا جميعا ، وقد انهالت عليه الأسئلة والاستفسارات من كل صوب ، واعتذر هو بأنه لايستطيع شرح كل التفاصيل الهـــامة ، إلا إذا كانت أمامه خريطة ، وعندئذ استأذنت لحظة ، وعندما عدت نشرت أمامه خريطة مكبرة لميناء حيفا ، وخريطة مكبرة أخرى لكل إسرائيل .

ودهش « آبد » لأن الخريطتين كانتـــا عبريتين ، كما انهما صادرتان عن أجهزة المسح الإسرائيلية نفسها ، والتف الرجال حول آبد وهو يحرك أصبعه فوق الأماكن ، والشوارع ، وتحول المكان إلى غرفة من غرف الدراسة .

وما أن انتهى عشاء الجواسيس حتى أخذوا فى الانصراف .

لم يسمح أى منهم لنفسه بأن يذكر عنوانه للاخرين ، كما انهم لم يتبادلوا أرقام التليفون كما يفعل بقية الناس ، وكان على « آبد » أن يصحب اثنين من الجواسيس فى عربته إلى حيث تركوا عرباتهم ولما وقفت لاودعهم ، كنت أدرك أكثر من غيرى حجم المعلومات التى قدموها لمصر وهم يخاطرون بأرواحهم ، وكنت أقدر ذلك الجهد العظيم والخلاق الذى بذله ضباط المخابرات العامة المصريون ، طوال عشرين سنة ، لكى تتسلل عيونهم إلى أصغر خلية فى الجسد الإسرائيلى ، وسط ظروف بالغة القسوة دون أن يسمع أحد عنهم كلمة واحدة .

فهـــرس

صفحة

رقم الإيداع ١٦٣٨ / ١٩٧٦

مطبعة عابدين - ت ٩٠٢٧٧٤

الكتاب والمؤلف

عندما نشر ماهر عبدالحميد فصولا من «عملاء من القاهرة» فى صحيفة الأهرام المصرية ومعها القبس الكويتية، أحدث قدرا هائلا من الضجة فى أوساط الرأى العام العربى والإسرائيلى.

فقد أصدرت المخابرات الإسرائيلية بيانا حاولت فيه أن تخفف من تأثير ما نشر على الإسرائيليين، ونشرت صحيفة معاريف أجزاء كاملة من هذا الكتاب على مدى أسبوعين، ولم تكن هذه الضجة بسبب الأسرار الرهيبة التى كشف عنها المؤلف فحسب، ولكن لأنه أزاح الستار عن الجهد الضخم الذى بذلته منظمة المخابرات المصرية، داخل ... الإسرائيلى طوال الحقبة الماضية، تلك التى يقول المؤلف نفسه، أنه ارتبط ... ارتباطا وثيقا.



الثمن ... ٠٠